

البيعة، المعاقدة والمعاهدة والابيعة على الطاعة للنبي أو الإمام، أو الحاكم أو الخليفة. هذه الكلمة من الجذر بـ يع، بمعنى العطاء والمصالحة باليدي اليمنى لإيجاب عقد البيع (ابن منظور؛ الفراهيدى؛ الفيومى، مادة "بيع"؛ شهيدى، ص 125).

الاستعمال. قبل الإسلام، كان من عادة العرب، في أثناء البيع والشراء، أن يتضادف المشتري والبائع باليدي اليمنى، لإتمام عقد البيع نهائياً، والتأكيد على الالتزام بما نص عليه، ويسمى هذا الفعل "البيعة" أو "الصفقة"، ومعناه أن المعاملة قد أنجزت. كان من السائد كذلك أن يُصافح أفراد الجماعة أو القبيلة الحاكم أو رئيس القبيلة، تعبيراً عن تعهدهم بطاعته وتنفيذ أوامره. وقد سُمي هذا الفعل بـ "بيعة لشَبَهِه بالبيعة في عقد البيع" (ابن خلدون، ص 209؛ الكتّانى، مج 1، ص 221-222؛ شهيدى، م. ن، ص. ن؛ د. الإسلامية، الطبعة الثانية، مادة "بيع"؛ الزحيلي، مج 6، ص 684).

على هذا الأساس عدّ عدّ كبيرٌ من المحققين المعنى الاصطلاحي لكلمة البيعة في النصوص والمصادر الإسلامية، مصافحة الشخص باليدي اليمنى تعبيراً عن الإذعان لطاعته أو رئاسته (شهيدى، م. ن، ص. ن؛ الشهرستانى، ص 155؛ الفراهيدى، معرف، مادة "بيع"). تدرّجياً طرأ الكثير من التغيير والتنوع في مظاهر البيعة، وأطلقت هذه التسمية تالياً على العقد أو التعهد الذي جاء هذا الفعل معبراً عنه ودليلًا عليه، وشاع، وصار متداولاً بهذا المعنى الثاني. من هنا يجب حسبان المعنى الشائع والاصطلاحي للبيعة في القرآن والسنة والتاريخ وعلم الكلام، والفقه السياسي الإسلامي، المعاهدة أو العقد الذي يبرمه المُبَايِع مع الإمام، أو الحاكم، أو غيره، على أن يطيعه في أمر محدد، أو أن يطيعه طاعة مطلقة، ويخضع له، ويلتزم بما ينص عليه التعهد، وفيه (ابن منظور؛ ابن الأثير؛ معرف، مادة "بيع"؛ مكارم الشيرازى، مج 1، ص 517؛ السبحانى، 1985م، ص 261؛ نفسه، 1412هـ، مج 4، ص 63؛ القاسمى، مج 1، ص 273؛ عبد المجيد، ص 17-18؛ عنایت، 1983م، ص 24).

تاريجياً. كان تقليد البيعة، قبل الإسلام، شائعاً، تعبيراً عن الموافقة على سيادة رئيس القبيلة، أو تعيين شخصٍ ما في منصب مهم (سبحانى، 1985م؛ شهيدى، م. ن، صص. ن). أشار الطبرى (مج 2، ص 255-256) إلى مبايعة قريش وبين كنانة قصي بن كلاب، الجد الأعلى للنبي صلى الله عليه وآلها وسلم، حين قرر إخراج خزاعة من مكة. أقرَ النبي مبدئياً هذا التقليد، أو هذه العادة الاجتماعية، وأول بيعة في السيرة النبوية، بيعة الإمام علي والسيدة خديجة عليهما السلام النبي صلى الله عليه وآلها وسلم، على الإسلام (← الجلسي، مج 65،

ص 392-393؛ الحرّ العاملٰي، مج 1، ص 281). مع ذلك، عدّ ابن شهرآشوب (مج 2، ص 21، 24) "بيعة العشيرة" أولَ بيعة في تاريخ الإسلام، في السنة الثالثة في "يوم الدار". يومئذ طلب النبيّ بأمرٍ من ربّه إلى بني هاشم أنْ يبَايعوه على الإسلام، وتنصُّ الأحاديث لدى أهل السنة والشيعة، على أنَّ عليًّا، وحده، هو الذي بايع النبيّ، وكان أصغر الحاضرين سنًا (الطبرٰي، مج 2، ص 319-321). البيعتان الأخرىان المهمتان اللتان عُقدتا في مكّة هما: بيعة العقبة الأولى في السنة الثانية عشرة منبعثة، وبيعة العقبة الثانية في السنة الثالثة عشرة منبعثة، والبيعتان كلُّتا هما جرتا في موسم الحجّ، في الموضع المسمى العقبة (وهو في منتصف الطريق بين مكّة ومنى)، وقد أُسْفِرَت البيعتان، لا سيّما الثانية منهما عن هجرة الرسول من مكّة إلى المدينة (← بيعة العقبة*، أيضًا المجلسي، مج 19، ص 23-26؛ الطبرٰي، مج 2، ص 361-366؛ القاسمي، مج 1، ص 253-257).

من ضمن البيعات التي جرت في المدينة بيعة المسلمين للرسول الأكرم صلّى الله عليه وآله وسلم، حين قرّر التوجّه إلى بدر في أوائل الهجرة (المجلسي، مج 65، ص 395). بيعة الرضوان* أو بيعة الشجرة أيضًا حدثت في السنة السادسة للهجرة في الحديّة (المجلسي، مج 20، ص 317-377؛ الطبرٰي، مج 2، ص 632-633). ورد الحديث عن هذه البيعة في الآيتين 10 و 18 من سورة الفتح، وقد وُصفت مبادعه الرسول صلّى الله عليه وآله وسلم في الآية 10، بأنّها مبادعه لله عزّ وجلّ، وذُمَّ من ينكث البيعة، أمّا من يفي بالبيعة والعهود فله أجره في الحياة الأخرى. في الآية 18 إعلان عن رضا الله عن هذه البيعة، ووعدُ بالنصر للمؤمنين الذين بايعوا الله ورسوله، والمراد بالنصر فتح خيبر، كما يرى معظم المفسّرين، أو فتح مكّة كما يرى البعض.

البيعة الأخرى هي مبادعه الرجال والنساء النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلم بعد فتح مكّة (← مكّة*) في السنة 8 للهجرة، والتي تشير إليها الآية 12 من سورة المتحنّة. في هذه الآية، طُلب إلى النبيّ أنْ يأخذ البيعة من نساء مكّة اللواتي آمنَّ. اشتهرت هذه البيعة في كتب التفسير والحديث والتاريخ باسم (بيعة النساء)، وقد بايع النساء النبيّ على: أنْ لا يُشرك، ولا يُسرقَ ولا يُرثى، ولا يُقتلن أولاً دهنّ، ولا يُنسبن ما في بطونهنَّ لغير آبائهم، وأنْ يُطعن النبيّ ولا يخالفنه في عملِ الخير (الحرّ العاملٰي، مج 14، ص 152-153؛ الطبرٰي، مج 3، ص 61-62؛ المجلسي، مج 21، ص 97-99، 113، 134؛ البخاري، مج 8، ص 125، أيضًا حول بيعة النساء ← الطبرسي، 1408هـ؛ الطباطبائيّ؛ الزمخشريّ؛ القرطبيّ،

المادة نفسها). آخر بيعة جرت في حياة النبي ﷺ صلى الله عليه وآله وسلم، بحسب بعض المصادر (← المخلسي، مج 37، ص 133، 138، 142، 202-203، 217)، هي بيعة المسلمين للإمام علي عليه السلام في اليوم الثامن عشر من السنة العاشرة للهجرة في موضع اسمه غدير خم؛ وكان موضوع هذه البيعة، ولادة الإمام علي عليه السلام.

فضلاً عن هذه الآيات، يُعبر مضمون بعض الآيات الأخرى، أو سبب نزولها، عن البيعة. قال بعض المفسّرين بشأن نزول الآية 91 من سورة التحول (وأوفوا بعهدي الله إذا عاهدتم...، إن هذه الآية تناطّب الذين بايعوا النبي ﷺ صلى الله عليه وآله وسلم على الإسلام (← الطبرسي، 1408هـ؛ نفسه، 1379هـ؛ الزمخشري، الآية نفسها). ورد هذا الرأي نفسه في بعض التفاسير شرحاً للآية 15 من سورة الأحزاب (ولقد كانوا عاهدوا الله من قبل...) (الطبرسي، 1408هـ؛ الطباطبائي، تفسير الآية؛ التكث في الآية 12 من سورة التوبة بمعنى نقض البيعة (← الطباطبائي؛ الزمخشري، تفسير الآية).

استمر تقليد البيعة أيضاً بعد وفاة النبي ﷺ صلى الله عليه وآله وسلم. لكن ما وسّم تلك البيعات اختيار شخصٍ خليفةً للنبي وحاكمًا للمسلمين، ومن ثم تباعيده بجموعة خاصة، أو يباعيده الناس جمِيعاً. ما جرى في السقيفة شكل نقطة البداية في هذا التحول، ففي يوم وفاة النبي ﷺ صلى الله عليه وآله وسلم قام عدُّ من المسلمين، منهم عمر بن الخطاب وأبو عبيدة بن الجراح، وبعض زعماء المهاجرين والأنصار في موضع يُسمى سقيفة بني ساعدة. مبايعة أبي بكر خليفةً للرسول، ثم بايعه عدُّ من الناس، وأخذت البيعة من آخرين بالقوّة (← التستري، مج 6، ص 288-289؛ المسعودي، مج 2، ص 307-309). وعلى هذا النحو جرت في ما بعد البيعة للخلفيتين عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان (رض)، وأصبحت تقليداً سياسياً (السعودي، مج 2، ص 312، 340؛ الزحيلي، مج 6، ص 689-691). كذلك بعد أن أصرّ الناس على الإمام علي عليه السلام، وافق على تولي زمام الأمور، فباعيده المسلمون في المسجد (ابن شهرآشوب، مج 3، ص 195؛ المسعودي، مج 2، ص 358؛ الزحيلي، مج 6، ص 692؛ الطبرى، مج 4، ص 427)، وبعد استشهاده عقدوا البيعة للإمام الحسن عليه السلام (ابن شهرآشوب، مج 4، ص 28؛ الطبرى، مج 5، ص 158). من البيعات الأخرى لأئمة الشيعة عليهم السلام، يجدر بنا أن نذكر بيعة عدد كبير من أهل الكوفة لمسلم بن عقيل نيابةً عن الإمام الحسين عليه السلام (السعودي، مج 3، ص 64؛ ابن شهرآشوب، مج 4، ص 91)، وكذلك بيعة أهل خراسان للإمام الرضا عليه السلام ولائياً لعهد المؤمن العباسى (←

المجلسى، مج 49، ص 144، 146، مج 64، ص 184-186؛ الطبرى، مج 8، ص 554.

من الجدير ذكره أنَّ الأحاديث لا سيَّما الأحاديث الشيعيَّة، قد تطرَّقت بالتفصيل إلى هذه البيعات، بحيث أنَّ بعض المجامع الحديثيَّة قد أفردت أبواباً خاصة ل موضوع البيعة، وتتضمن هذه الأحاديث أحياناً مباحث كلاميَّة (على سبيل الأمثلة ← البخاريُّ الجعفيُّ، مج 8، ص 29، مج 27، ص 67-73، وما بعدها، مج 20، ص 317) ← تتمَّة المقالة)، و بعضها الآخر عدَّ لمس الحجر الأسود بمنزلة بيعة النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ (الحرَّ العاملِيُّ، مج 32، ص 5-148).

فضلاً عن ذلك، وردت أحاديث أخرى حول البيعة، منها ما يتعلَّق بحرفيَّة نقض البيعة (← تتمَّة المقالة)، وبعضها الآخر عدَّ لمس الحجر الأسود بمنزلة بيعة النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ (الحرَّ العاملِيُّ، مج 9، ص 406).

أنواع البيعة. يتبيَّن من المعنى اللغويِّ للبيعة أنَّها كانت تتمُّ بالصافحة أو الضغط باليدين؛ وكما ذكر اللغويُّون، كانت هذه الطريقة متداولة أيضاً في القَسَم (الحلف) والتعاقد، وقالوا إنَّ ذلك كان سبب تسمية القَسَم باسم "اليمين" (← اليمين)*؛ كما كان سبب تسمية البيعة باسم "الصَّفْقة" (المجلسى، مج 2، ص 266، مج 27، ص 68؛ ← ابن منظور؛ الفراهيدى؛ الفيَّومي؛ م. ن، صص. ن). وُصفت بيعة الرجال في سيرة الرسول الأكرم على هذا النحو أيضاً (المجلسى، مج 20، ص 367، مج 37، ص 133، مج 65، ص 392، 395؛ نهج البلاغة، الخطب 8، 137، 170، 229). عدَّ بعض المفسِّرين عبارة "يد الله فوق أيديهم" في الآية 10 من سورة الفتح إشارةً إلى تحقُّق البيعة بالصافحة (الطباطبائى)، تفسير الآية). مع ذلك كله وردت في الأحاديث أنواع أخرى من البيعة (الللاطَّالع على هذه الأشكال من البيعة، من بين المصادر ← المجلسى، مج 49، ص 144، 146، مج 64، ص 184-186). كما أنَّ البيعة تتمُّ أحياناً بإعلان البائع رضاه، ومن دون الصافحة (شهيدى، ص 127؛ عبد المجيد، ص 23-24).

تَّمَّت بيعة النساء للنبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ على نحو آخر؛ فقد جاء في بعض الأحاديث أنَّ النبيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، وضع يده في أوّل الأمر في وعاء فيه ماء، وفعلت النساء مثله (← الطبرى، مج 3، ص 62؛ المجلسى، مج 21، ص 99، 113، 117، 134، مج 64، ص 184، 187، 188). ورد في آيات أخرى أنَّ الصافحة في بيعة النساء تَّمَّت بأيدي غطتها الأنوار (← الطبرسى، 1408هـ؛ الزمخشريُّ، سورة المتحنة: 12).

أوردت بعض الأحاديث كذلك أنَّ بَيْعَةَ النَّسَاءِ لِلنَّبِيِّ اقتصرت على المباعدة الكلامية واللفظية (الطبرسي؛ الطبرى، م. ن، صص. ن؛ الكتانى، مج 1، ص 222؛ البخارى الجعفى، مج 8، ص 125، باب بَيْعَةَ النَّسَاءِ). فضلاً عن ذلك، ذُكر في بعض الأحاديث أيضاً أشكالاً أخرى لَبَيْعَةَ النَّسَاءِ (المفید، ص 63). يقول القاسمي (مج 1، ص 277-278): إِنَّا إِذَا اسْتَشْنَيْنَا الْمَرْأَاتِ الْمَعْدُودَةِ الَّتِي بَاعَتِ النَّسَاءَ فِيهَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وَمِنْهَا بَيْعَةُ الْعَقْبَةِ الْثَّانِيَةِ، وَبَيْعَةُ الرَّضْوَانِ، وَفَتْحُ مَكَّةَ (الطبرى، مج 2، ص 361-366، 632-633، مج 3، ص 61-62). لا وجود لأى رواية تحكى عن بَيْعَةَ النَّسَاءِ في عهود الخلفاء والحكام، ويبدو أنَّ الْبَيْعَةَ في ما بعد قد اقتصرت على الرجال.

في تصنيف عام لِلَّبَيْعَاتِ الَّتِي عَقَدَهَا النَّبِيُّ يَرَى ابْنُ شَهْرَآشُوبَ (مج 2، ص 21) أنها نوعان: الْبَيْعَةُ الْخَاصَّةُ وَالْبَيْعَةُ الْعَامَّةُ. الْخَاصَّةُ بِجَمِيعِهِ مُعَيْنَةٌ مُثَلِّ بَيْعَتِي الْأَنْصَارِ فِي الْعَقْبَةِ، وَبَيْعَةُ الْعَشِيرَةِ؛ أَمَّا الْبَيْعَةُ الْعَامَّةُ فَلِلْعُلُومِ كَبَيْعَةُ الشَّجَرَةِ (أيضاً ← فَاكِرُ الْمَبِيدِيِّ، ص 183-186). كان لِلْبَيْعَةِ كَمَا جَاءَ فِي الْمَصَادِرِ الْحَدِيثِيَّةِ وَالتَّارِيْخِيَّةِ صِيغَةٌ تَنْصُّ عَلَى مَوْضِعِهَا، يَنْطَقُ بِهَا الْمُبَايِعُ عَادَةً (عَلَى سَبِيلِ الْأَنْمُوذِجِ ← الْجَلِسِيِّ، مج 19، ص 26، مج 21، ص 98، مج 65، ص 392-393، 395). كانت الْبَيْعَةُ أَحِيَاً مَشْرُوطَةً عَلَى نَحْوِ مَا، أَيْ تَضَمَّنَ تَعْهِداً لِمَصْلَحَةِ الْمُبَايِعِ. وَأَحِيَاً كَانَ الْمَوْضِعُ الْأَسَاسِيُّ لِلْبَيْعَةِ يُعَبَّرُ عَنْهُ بِالْشَّرْطِ (الكتانى، م. ن، ص. ن). يَبْدُوا أَنَّ بَيْعَةَ الْعَشِيرَةِ، هِيَ الْبَيْعَةُ الْوَحِيدَةُ فِي سِيرَةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، الَّتِي كَانَتْ مَشْرُوطَةً، إِذَا شُرِطَتْ فِيهَا خَلَافَةُ الْمُبَايِعِ وَوَصِيَّتِهِ (ابن شهراشوب، مج 2، ص 25؛ الطبرى، مج 2، ص 321). يُلَاحِظُ فِي بَيْعَةِ بَعْضِ الْخَلَفَاءِ أَحِيَاً شَرْطَ، مِنْهَا شَرْطُ الْعَمَلِ بِكِتَابِ اللَّهِ وَسُنْنَةِ نَبِيِّهِ (القاسمي، مج 1، ص 274؛ الزحيلي، مج 6، ص 691؛ البخارى الجعفى، مج 8، ص 122).

كانت الْبَيْعَةُ تُعَقَّدُ أَحِيَاً بِوَاسْطَةِ وَكِيلِ الْمُبَايِعِ أَوْ نَائِبِهِ، مِنْ ذَلِكَ بَيْعَةُ النَّسَاءِ الْإِمَامِ عَلَيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ نِيَابَةً عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ فِي الْحَدِيثِيَّةِ (المفید، م. ن، ص. ن)، وَبَيْعَةُ أَهْلِ الْكُوفَةِ مُسْلِمًا بْنَ عَقِيلَ نِيَابَةً عَنِ الْإِمَامِ الْحُسَيْنِ عَلَيْهِ السَّلَامُ (الْمَسْعُودِيُّ، مج 3، ص 64؛ الْجَلِسِيُّ، مج 44، ص 335-336)، وَكَذَلِكَ بَيْعَةُ الرَّسُولِ الْأَكْرَمِ نِيَابَةً عَنِ عُثْمَانَ فِي الْحَدِيثِيَّةِ، وَكَانَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ هُوَ الْطَّرْفُ الْآخِرُ فِي تَلْكَ الْبَيْعَةِ (← الْجَلِسِيُّ، مج 2، ص 367؛ القاسمي، مج 1، ص 289). طُرِحَتْ كَذَلِكَ بَعْدَ اتساعِ رَقْعَةِ الْبَلْدَانِ الْخَاضِعَةِ لِسُلْطَةِ الدُّولَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ، وَرَوَاجَ تَقْلِيدُ أَحَدِ الْبَيْعَاتِ لِلْخَلَفَاءِ قَضِيَّةُ بَيْعَةِ أَهَالِيِ الْبَلْدَانِ

الخاضعة للحكومة المركزية (= الأقاليم)؛ فقد كان أهالي تلك الأقاليم أو الولايات يُبَايِعُون عادةً الحاكم الخليجي نيابةً عن الخليفة (القاسمي، مج 1، ص 289-290؛ شهيدى، م. ن، ص. ن).

استمرّت عادة البيعة لل الخليفة في العصرين الأموي والعباسي، إنما لحقتها تغييرات في الشكل والمضمون. على الرّغم مما صاحبَ أخذَ البيعة من إكراه أحياناً في عهد الخلفاء الأوائل، بدأً منذ استلام معاوية للحكم تغيير في عناصر البيعة شكلاً ومضموناً؛ ويعتقد عدد كبير من كتاب أهل السنة أنَّ معاوية كان يلْجأ إلى مختلف الأساليب التي تساعدُه على تدعيم خلافته، وتشييـت سلطة عائلته، وأخذَ البيعة لنفسه ولابنه يزيد، كاستغلال السلطة والنفوذ، والتهديد والوعيد، والوعود والإغراءات المختلفة، كالإغراء بالحكم، وبثُ الخلاف والفرقة بين الناس، وحبك المؤامرات (→ القاسمي، مج 1، ص 281-287؛ عبد الحميد، ص 60-61).

بالتدريج خالط الإكراه والإجبار ماهية البيعة، وما طُرِح في الواقع كان أخذَ البيعة وليس المبايعة الحرّة، أو النابعة من إرادة المُبَايِعِ ومشيئته (الكتاني، مج 1، ص 223؛ المسعودي، مج 3، ص 79: "وَبَأَيْعَ النَّاسُ عَلَى أَنَّهُمْ عَبِيدٌ لِيَزِيدٍ")؛ كذلك فإنَّ يزيد أمرَ عامله على المدينة، الوليد بن عتبة، أنْ يقْبض على الحسين عليه السلام وعبيد الله بن الزبير وبضعة أشخاص آخرين ليُبَايِعوا، أو يرسلَ إليه رأس من يرفض (الطبرى، مج 5، ص 338). لقد نَحَتَ البيعة في هذا العصر منحىً تشريفياً كمالياً؛ وجرت العادة أيضاً أنْ تُؤْخَذ البيعة لل الخليفة الجديد في بداية حكمه تعبيراً عن الطاعة والإخلاص له (على سبيل الأنماذج → الطبرى، مج 7، ص 311، مج 6، ص 471، مج 4، ص 423)، وكانت البيعة تُؤْخَذ أيضاً في حياة الخليفة لوليّ عهده، أو لأولياء عهده (م. ن، مج 7، ص 295، مج 5، ص 301، مج 6، ص 531-532؛ المسعودي، مج 4، ص 210-211). وكثيراً ما كانت البيعة تُؤْخَذ لل الخليفة في بداية حكمه مقابل الكثير من الوعود والأعطيات، فقد بلغت نفقات بيعة المقتدر العباسى ثلاثة ملايين دينار. فضلاً عن ذلك، كان الخليفة بعد أنْ يُسْتَقِرُ حكمه يوزّع مقابل البيعة مبالغ من المال للجند باسم "رُزق البيعة" (→ القاسمي، مج 1، ص 286). ويبدو أنَّ الراغب الإصفهانى (مادة "بيع") فسّر البيعة من خلال هذا المفهوم حين قال إنها "بذل الطاعة مقابل القليل من العطاء". وردت أخبار البيعة المختصة بالقادة العسكريين وبحند الخليفة في العصر العباسى منذ عهد المنصور والمهدى وعيسى (القاسمي، مج 1، ص 290-291). كان الخليفة نفسه أحياناً هو الذي ينقض البيعة المأحوذة لوليّ عهده، ويعين آخر مكانه ولِيًّا للعهد (→ الطبرى، مج 8، ص 9).

شكلياً أيضاً طرأت تغييرات على البيعة. فعلى الرغم من أنَّ تقليد المصادقة بالأيدي قد ظلَّ معمولاً به لدَّة طويلة، كانت البيعة في العصر الأموي تتضمن "الاستخلاف" على العهد، وقد أقرَّ الحجاج أيماناً خاصةً بها "أيمان البيعة"، كانت تقرَّر في أثناء المُبايعة وتتضمن عدداً من عبارات القَسَم (→ ابن قدامة، مِج 11، ص 330؛ ابن خلدون، ص 209؛ الكتّاني، م. ن، ص. ن). يقول ابن خلدون (م. ن، ص. ن): "أمّا البيعة المشهودة لذلِك فهي تحيّة الملوك الكسرويَّة من تقبيل الأرض أو اليد أو الرِّجل، أو الذَّيل، أطلق عليها اسمُ البيعة التي هي العهد مجازاً، لما كان هذا الخضوع في التحيّة والتزام الآداب من لوازم الطاعة وتوابعها، وغلب فيه حتَّى صارت حقيقة عُرفية، واستغنى بها عن مصادقة أيدي الناس التي هي الحقيقة في الأصل، كما في المصادقة لكلٍّ أحَدٍ من التنزُّل والابتذال المُنافيَّين للرئاسة وصونِ المنصب الملكيِّ إلَّا في الأقلِّ، ممَّن يقصد التواضع من الملوك فيأخذ به نفسه مع خواصِه ومشاهير أهل الدين من رعيَّته" (→ الكتّاني، م. ن، ص. ن)، إذاً يرى ابن خلدون (م. ن، ص. ن)، أنَّ هذا العمل الذي كان على ما ييدو عرفاً في عصره، سُميَ باسم البيعة مجازاً. يحكي الكتّاني (م. ن، ص. ن) عن نوعٍ من البيعة المكتوبة التي كانت متداولةً في عصره، كان المُبايع فيها يكتب نصاً يضمُّه الإقرار بسلطة الحاكم، أو يُدرج اعترافه في نصٍّ عليه شهود. تدلُّ النصوص التاريخية (السيوطِيُّ، ص 26، الفائدة 20؛ القاسميُّ، مِج 1، ص 291-292) أنَّ بَيْعَةَ الْخُلُفَاءِ وَالْحَكَامِ كانت تتضمن مراسيم واحتفالات خاصةً تختلف باختلاف البلدان، من بين التقاليد التي راحت على ما ييدو منذ بداية العصر الأموي، تقليد "تجديد البيعة"، أيُّ أنَّ الخليفة كان يأخذ البيعة مجدداً لنفسه، أو لوليِّ عهده، ترسِيحاً لإخلاص الناس وإطاعتهم (د. الإسلاممِيَّة، الطبعة الثانية، مادة "بيع").

يرى شهيدي (م. ن، ص. ن) أنَّ تقليد البيعة راج في جميع الحكومات التي حملت دعوة الخلافة الإسلامية، كالخوارج والباطميين، وأمويي الأندلس، وحتى العثمانيين، وظلت متداولةً في إيران طيلة المدَّة التي كانت خاضعةً فيها لحكومات تابعة للخلافة الإسلامية؛ ويبدو أنَّها انقرضت بعد اهيار الخلافة العباسية. بالإضافة إلى الحكومات، كانت تقليد البيعة موجوداً أيضاً لدى أعداء الخلفاء والمعارضين لهم، كبيعة أهل العراق لعبد الله بن الرُّبَّير (المسعوديُّ، مِج 3، ص 83)؛ البيعة لزيد بن عليٍّ بن الحسين من أصحابه (الطبرِيُّ، مِج 7، ص 167، 171)؛ بَيْعَة جماعة من الناس لمحمد بن عبد الله النفس الزكية في أواخر العصر الأموي، وفي عهد المنصور

(المسعودي، مج 3، ص 294، 306؛ البيعة التي أخذها أبو مسلم من أهل خراسان لإبراهيم الإمام (الطبرى، مج 7، ص 379-380).

المباحث الكلامية والفقهية. اتّخذت لفظة البيعة بعد وفاة النبي صلّى الله عليه وآلّه وسلّم مفهوماً وطابعاً سياسىّين، حتى أنَّ البعض من أهل السنة يقرّون أنّها تحولت بعد بيعة السقيفة إلى مصطلح سياسىًّا (القاسى، مج 1، ص 257-258). على الرّغم من أنَّ مصادر أهل السنة الكلامية والفقهية عدّت آثاراً مهمّة لمبايعة الحاكم، قليلاً ما أحضرت ماهيّة البيعة للبحث والتحليل.

في المصادر الفقهية المتأخرة لدى أهل السنة والشيعة على حد سواء، ظهرت آراء مختلّفة حول الماهيّة الحقيقية للبيعة. كثيّر منها عدّ البيعة انطلاقاً من معناها اللغويّ، ولشَبَهِها بعقد البيع، عقداً يتضمّن تعهّداً من طرفين، وبالمصطلح الفقهى عقد معاوضة، أي أنَّ المُبَايِع يتعهّد في عقد البيعة بأمور مثل اتّباع المُبَايِع وإطاعته، والالتزام بأوامره، والإخلاص له، ويتعهّد المُبَايِع له، أنْ يَحْكُم بالكتاب والسنة، وأنْ يَحْمِي المُبَايِع، ويدير شؤونه بأمانة وإخلاص، وغير ذلك من الأمور (مكارم الشيرازى، مج 1، ص 517؛ السبحانى، 1985م، ص 260؛ نفسه، 1412هـ، مج 4، ص 62؛ منتظرى، مج 1، ص 523؛ بغا، ص 263؛ القاسى، مج 1، ص 273-274؛ عبد المجيد، ص 18؛ الرحيلى، مج 6، ص 683-684). يرى بعض العلماء أنَّ معنى البيعة كما ورد في الآية 10 من سورة الفتح، هو بَيْعُ الأرواح والأنفس ابتغاء الجنّة (ابن شهرآشوب، مج 2، ص 22؛ الطبرسى، 1408هـ، تفسير الآية).

إنَّ التأمّل في البيعات التي عُقدت في زمان النبي صلّى الله عليه وآلّه وسلّم، يؤكّد الماهيّة العقدية للبيعة، كما يدلّ من ناحية أخرى على أنّها جمِيعاً كانت بوجوب عقد البيعة تضع على عاتق المُبَايِع تعهّداً خالصاً بالالتزام بالإسلام، وبنصرة النبي، وطاعته، وجهاد الكفار، وما أشبه، ولم تضع في المقابل أيّ تعهّد على عاتق النبي. علمًا أنَّ أحد الأحاديث قد تطرق للكلام على الحقوق المقابلة للمُبَايِع والمُبَايِع (المحلسى، مج 19، ص 26)، والمراد بحقوق المُبَايِع استناداً إلى هذا الحديث نفسه، وإلى الآيات القرآنية النصر والثواب الإلهيّان، اللذان هما في الواقع نتيجة وثرة لعمل المُبَايِعين، بناءً على مفاد تعهّدهم، وليس عوضاً عن الاتفاقيّة في عقد البيعة. في كلام أمير المؤمنين عليه السلام في نهج البلاغة (الخطبة 34)، ذُكر أيضاً العمل بالبيعة فقط في عداد حقوق الحاكم على الناس. والظاهر أنَّ عدداً كبيراً من الحقّين

قد عدّوا على أساس هذا التحليل نفسه **البيعة** "عهداً على الطاعة" أو "بذل الطاعة" (ابن خلدون، م. ن، ص. ن؛ الكتّاني، مج 1، ص 222، سبّاحي، 1985، ص 261؛ معرفت، ص 82؛ آصفي، ص 80، 86؛ مكارم الشيرازي، مج 1، ص 519؛ الشهرستاني، ص 155؛ الطباطبائي، مادة الفتح: 10؛ الراغب الإصفهاني، م. ن، ص. ن)؛ وقال البعض إنَّ **البيعة** عقدٌ غير معوض، ويُشبه عقد المبة (عبد الحميد، ص 22)، حتى أنَّ البعض عدّها من مقوله الإيقاع (مكارم الشيرازي، مج 1، ص 517). يرى بعض المؤلفين أنَّ **البيعة** تتضمّن تعهّداً أحاديَّ الجانب (← القاسمي، مج 1، ص 276). الجدير قوله إنَّ الحديث قد تطرق أكثر من مرّة في أقوال علىٰ عليه السلام عن حقوق الناس على الحاكم، وعن أهميَّة تلك الحقوق (← الخطبتان 34، 216 والرسائل 26، 45، 53)؛ لكنْ لا يمكن عدَّ هذه الحقوق ناجمةً عن **البيعة**.

تتضمّن **البيعة** بناءً على ماهيتها العقدية ثلاثة أركان أساسية: **المُبَايع** وال**المُبَايَع** له، وموضوع **البيعة**. وبموجب ماهيتها العقدية، يجب أنْ يتحلى الطرفان، بناءً على الرأي الفقهي، بالشروط الالزمة مثل البلوغ، والرشد والعقل (الأصفي، ص 85؛ البخاري الجعفي، مج 8، ص 124، باب **بيعة الصغير**). لقد أجازت بعض أحاديث أهل السنة **بيعة الصغير** (← الكتّاني، م. ن، ص. ن). كما اشترط في بعض الأحاديث استطاعة **المُبَايع** (البخاري الجعفي، مج 8، ص 122؛ الأصفي، م. ن، ص. ن). من ضمن الشروط التي حرّى التأكيد عليها في المصادر الفقهية، الإرادة وعدم الإكراه، بالنسبة إلى الطرفين كليهما (عبد الحميد، ص 133-138؛ القاسمي، مج 1، ص 275؛ الشهرستاني، ص 157؛ الأصفي، ص 86). عدّت مصادر أهل السنة **البيعة** المصحوبة بالإجبار أو الإكراه فاسدةً شرعاً، وفي الوقت عينه، عدّت قانونيَّة ونافذةً إنْ توافرت فيها الشروط (عبد الحميد، ص 139-140).

إنَّ موضوع عقد **البيعة** هو المسألة الأساسية التي يدور حولها الخلاف بين الشيعة وأهل السنة. بعد أنْ حدث ما حدث في السقيفة، وجرت للمرّة الأولى **المُبَايَع**ة على الخلافة وقيادة الأُمَّة، تصدّى متكلّمو أهل السنة في العصور اللاحقة، لتوسيع المباني والأسس الكلامية للحادثة المذكورة. من هنا، طرحت مصادرهم الكلامية نظريةً مفادها أنَّ الإمامة يمكن أنْ تحصل بناء على إرادة الناس واحتيارهم، وذلك بواسطة **البيعة**، أو أنَّ **البيعة** هي الوسيلة الوحيدة لتحقيق الإمامة لشخص من الأشخاص (الباقلاّني، ص 178؛ البغدادي، ص 279). تطرق بعد ذلك كتاب الفقه السياسي من أهل السنة كالماوردي وأبي يعلى الفراء نظراً لاعتقادهم بأنَّ

الإمامية فرعٌ من فروع الدين بدلاً من الأصول (بهذا الصدد ← سبحاني، 1412هـ، مج 4، ص 9-12)، إلى البحث في مؤلفاتهم في شروط البيعة وآثارها الحقوقية على أساس هذه النظرية الكلامية (← الماوردي، ص 7 وما بعدها؛ عبد المجيد، ص 21-22، 73 وما بعدها).

عَدَّ عدُّ كبير من فقهاء أهل السنة بيعة المجموعة المسمّاة "أهل الحلّ والربط" موجّهاً لانعقاد الخلافة (حول التسميات الأخرى لهذه المجموعة مثل: أهل الاختيار، وأهل الاجتِهاد، وغير ذلك من التعريفات المختلفة ← الزحيلي، مج 6، ص 685-686؛ الماوردي، ص 31-33؛ عبد المجيد، ص 91-101؛ القاسمي، مج 1، ص 266-270). رأى البعض ومن بينهم الأشعري، أنَّ الحدَّ الأدنى من عدد المُبَايِعِين اللازم لتحقّق الإمامة رجلٌ واحد، والبعض قال: اثنان، وجماعة قالت ثلاثة، وأخرى خمسة، وأخرون قالوا: أربعون. رأى البعض من دون تحديد عدد معين ضرورة مبادعة أكثرية "أهل الحلّ والربط"، ورأى آخرون ضرورة مبادعتهم كُلُّهم، أو ما يُسمّى بالإجماع (← الزحيلي، مج 6، ص 685-687؛ الماوردي، ص 33-34؛ عبد المجيد، ص 91، 93؛ القاسمي، مج 1، ص 267-269؛ أيضًا حول نقد هذا الرأي ← الباقلاني، م. ن، ص. ن). يرى بعض أهل السنة على نحوٍ مُبِّهم أنَّ بيعة مجموعة من أهل الحلّ والربط كافية (القاسمي، مج 1، ص 268؛ الزحيلي، مج 6، ص 687). يرى بعض فقهاء أهل السنة أنَّ انعقاد الخلافة غير ممكن إلَّا بـالبيعة (← الماوردي، ص 33-35؛ عبد المجيد، ص 74-78؛ البغدادي، م. ن، ص. ن؛ الزحيلي، مج 6، ص 683-684). عَدَّ عدُّ من الفقهاء المتأخّرين والمعاصرين، فضلاً عن البيعة المذكورة، بيعة عامة الناس ركناً أصلياً لثبتوت الخلافة، والبيعة تتمُّ على ثلاث مراحل: ترشيح شخص للخلافة، فالبيعة الخاصة أو الصغرى، ثم البيعة العامة أو الكبرى (الزحيلي، مج 6، ص 687، 692؛ عبد المجيد، ص 73-105؛ القاسمي، مج 1، ص 259-260). شرح الماوردي مقدّمات البيعة ومراحلها بالكثير من التفصيل (ص 33-37؛ حول هذا الموضوع، وكذلك حول شروط المُبَايِعِين والمُبَايِعِين، وشروط صِحَّة البيعة، بمنظار فقه أهل السنة ← عبد المجيد، ص 142-148، 308-311). كذلك جرى البحث في المصادر حول آثار البيعة لشخصين في الوقت نفسه (← الماوردي، ص 37-38؛ الأصفي، ص 108-113).

بالمنظار الشيعيٍّ من غير الممكن عقد البيعة لكلَّ أمرٍ من الأمور، وعلى فَرَض أَنَّا نعُدُّ البيعة عقدًا، يجب أنْ يكون موضوع عَقد البيعة مشروعًا وجائزًا. فعلى سبيل المثال، يرى

متكلّمو الشيعة مسألة الإمامة وخلافة النبي صلّى الله عليه وآلـه وسلـمـ، من الموضوعات التي لا يُمـكـن أن تـبـتـ من خـالـلـ بـيـعـةـ بـجـمـوـعـةـ من النـاسـ، أو النـاسـ كـلـهـمـ، وإنـماـ من خـالـلـ الأـدـلـةـ العـقـلـيـةـ وـالـنـقـلـيـةـ الـعـدـيـدـةـ، يـجـبـ أنـ يـكـونـ الإـمـامـ مـنـصـوـصـاـ عـلـيـهـ (ـالـمـظـفـرـ،ـ مـجـ 2ـ،ـ صـ 25ــ 32ـ)ـ،ـ السـبـحـانـيـ،ـ 1412ـهـ،ـ مـجـ 4ـ،ـ صـ 26ــ 45ـ).ـ يـرـىـ فـقـهـاءـ الشـيـعـةـ أـنـهـ عـلـىـ الرـغـمـ مـنـ أـنـ العملـ بـعـقـدـ الـبـيـعـةـ مـلـزـمـ استـنـادـاـ إـلـىـ أـدـلـةـ لـزـومـ الـوـفـاءـ بـالـعـقـدـ أـوـ الشـرـطـ مـثـلـ "ـأـوـفـواـ بـالـعـقـودـ"ـ (ـالـمـائـدـةـ:ـ 1ـ)ـ (ـسـبـحـانـيـ،ـ 1985ـمـ،ـ صـ 262ــ 263ـ)ـ؛ـ مـكـارـمـ الشـيـرـازـيـ،ـ مـ.ـ نـ،ـ صـ.ـ نـ؛ـ الـحـائـريـ،ـ 1414ـهـ،ـ صـ 201ــ 202ـ)،ـ لـكـنـ هـذـهـ أـدـلـةـ نـفـسـهـاـ،ـ لـاـ يـمـكـنـ أـنـ تـبـتـ مـوـضـوـعـ الـعـقـدـ الـمـشـرـوـعـيـةـ،ـ وـإـنـماـ تـدـلـ فـقـطـ عـلـىـ لـزـومـ الـوـفـاءـ بـشـرـوـطـ الـعـقـودـ الـمـشـرـوـعـةـ (ـالـحـائـريـ،ـ 1399ـهـ،ـ صـ 164ـ)ـ؛ـ الـمـوـسـوـيـ الـخـلـخـالـيـ،ـ صـ 580ـ)ـ؛ـ الشـهـرـسـتـانـيـ،ـ مـ.ـ نـ،ـ صـ.ـ نـ).

يرى علماء الشيعة كذلك، أنَّ ماهيَّة الْبَيْعَةِ في زمان الرسول الأَكْرَم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، معَ الْأَنْدَلُسِ في الاعتبار معنى اللفظة الْلُّغُوِيِّ، وَنَظَرًا لِوُجُوبِ طَاعَةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بِالْأَدَلَّةِ الْعُقْلِيَّةِ وَالنَّقْلِيَّةِ، لَمْ تَكُنْ إِنْشَائِيَّةً، بَلْ كَانَ لَهَا مِنْحَى تَوْكِيدِيَّ فَقَطُّ، وَكَانَ الْمَهْدَى مِنْ عَقْدِهَا تَأكِيدُ الْعَمَلِيَّ لِلإِيمَانِ بِالنَّبِيِّ، وَالْتَّعَهُدُ بِعُسْتَلَرَمَاتِ الإِيمَانِ، وَبِتَعْبِيرِ الْبَعْضِ إِيمَادُ دَافِعِ جَدِيدِ لِنَصْرَةِ النَّبِيِّ وَطَاعَتِهِ، إِذَا، لَا يَسْتَنِدُ أَصْلُ مِشْرُوْعِيَّةِ النَّبِيِّ الْأَكْرَمِ، وَثَبُوتُ مَقَامِ وَلَايَتِهِ، وَهَىَ وَجُوبُ اتِّبَاعِهِ إِلَى الْبَيْعَةِ (← سَبْحَانِي، 1985م، ص 261-263؛ نَفْسِهِ، 1412هـ، مج 4، ص 63؛ مَكَارِمُ الشِّيرازِيِّ، مج 1، ص 518-519؛ عَلَمُ الْمَهْدِىِّ، مج 2، ص 150؛ مَنْتَظِرِيِّ، مج 1، ص 526؛ الْحَائِرِيِّ، 1414هـ، ص 200؛ نَفْسِهِ، 1399هـ، ص 173-174؛ أَصْفَى، ص 89-90؛ الْمُوسُوِيُّ الْخَلَخَالِيُّ، ص 555)، كَمَا أَنَّ الْجَانِبُ التَّوْكِيدِيُّ لِلْبَيْعَةِ، كَثِيرًا مَا يُشَاهِدُ فِي الْبَيْعَاتِ الَّتِي عُقِدَتْ لِلخَلْفَاءِ، لَا سِيَّما فِي الْحَالَاتِ الَّتِي انْعَقَدَتْ فِيهَا الْخَلَفَةُ، بِنَاءً عَلَى وَصِيَّةِ الْخَلِيفَةِ السَّابِقِ، وَتَعْيِينِهِ لَخَلْفَهُ، كِحْلَافَةِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ)، وَخَلَافَةِ عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) (وَهَىَ حَلَافَةُ أَبِي بَكْرِ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) ← سَبْحَانِي، 1985م، ص 263؛ الْحَائِرِيِّ، 1414هـ، ص 209). يَرَى فَقَهَاءُ الشِّيَعَةِ (سَبْحَانِي، م. ن.، ص. ن)، أَنَّ نَظَرِيَّةَ أَهْلِ السَّنَّةِ هَذِهِ، إِمَّا أَنَّهَا مُسْتَمْدَةٌ مِنْ تَقْلِيدِ الْبَيْعَةِ لِشِيَخِ الْقَبِيلَةِ لَدِيِّ الْعَرَبِ قَبْلِ إِسْلَامِ (حَوْلَ رَأِيِّ بَعْضِ الْمُسْتَشِرِقِينَ ← عَبْدُ الْجَمِيدِ، ص 39)، أَوْ مُبْنَيَّةً عَلَى ادْعَاءِ اخْتِيَارِ جَمِيعِ أَوْ بَعْضِ خَلْفَاءِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ مِنْ طَرِيقِ الْبَيْعَةِ؛ فِي حِينَ أَنَّ أَيَّاً مِنْ الْأَمْرَيْنِ لَيْسَ سِنَدًا يُعْتَدُ بِهِ.

الإشكالية الأخرى لدى العلماء الشيعة بهذا الصدد وجود الإجبار، أو على الأقل الإكراه في معظم حالات بيعة الناس للخلفاء استناداً إلى الأحداث التاريخية، التي أقرّ بها حتى بعض أهل السنة (عبد الجيد، ص 138؛ الخطيب، ص 409-412). فهنالك الكثير من الأدلة التاريخية والحديثية، التي تثبت أنَّ الإمام عليًّا عليه السلام، وبين هاشم وعدها من كبار الصحابة لم يُبايعوا أبي بكر (رض) بعد حادثة السقifice، وقد أكَّرُهُوا بعد ذلك على المبايعة (← علم المدى، مج 2، ص 12، 151؛ المسعودي، مج 2، ص 307-309؛ المجلسي، مج 29، ص 36، 91-93، 95). فضلاً عن ذلك، أحد مؤسسي تلك البيعة وصفها بأنها عملٌ متسرّع [فلَتَّةٌ وقَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ شَرَّهَا] ولا يجوز تكرارُها (← السيوطي، ص 67؛ التستري، مج 6، ص 281-287؛ المجلسي، مج 30، ص 443-470؛ الشهري، ص 156).

في هذا السياق لم تحدث أيٌّ بيعة حرّة، إلا في خلافة الإمام عليٍّ عليه السلام، الذي لم يوافق، على الرغم من إصرار أصحابه، علىأخذ البيعة الإجبارية، وعدد الذين لم يُبايعوا، كما تقول المصادر التاريخية، كان محدوداً جدًّا، ولم يُحرموا من حقوقهم الاجتماعية أو يتعرّض لهم أحد (المسعودي، مج 2، ص 361-362؛ التستري، مج 6، ص 257، 272-273، 301-302). (305).

ادعى بعض مؤلفي أهل السنة (عماد الدين الكاتب، ص 14-15؛ القاسمي، مج 1، ص 262-264)، استناداً إلى الخطاب والرسائل الواردة في نهج البلاغة (من ضمنها الخطاب 8، 137، 172، 218، والرسائل 1، 6، 7، 54)، حيث جرى الكلام على كون البيعة ملزمة للناس، حتى أولئك الذين لم يُبايعوا، ادعوا أنَّ الإمام عليًّا والإمام الحسن عليهما السلام قد وافقا على ثبوت الإمامة بالبيعة (القاسمي، مج 1، ص 265). لكنَّ المحقّقين الشيعة يرفضون هذا الرأي، لأنَّ الإمامة لا تثبت بالبيعة، فضلاً عن أنَّ ما يُعدُّ من ضرورات علم الكلام الشيعيّ، ما صرَّح به وأكَّده عليٌّ عليه السلام شخصياً (من ذلك ← نهج البلاغة، الخطاب 2، 144، والرسالتان 28، 62، والحكمة 147؛ أيضاً ← التستري، مج 6، ص 262، 271، 294-296). إنَّ هذه الأحاديث من خلال هذا الدليل وغيره من الأدلة (← مكارم الشيرازي، مج 1، ص 523-525)، في حال كانت صحيحَة السُّنْد (حول هذا الموضوع ← الحائرى، 1414هـ، ص 210)، يجب أنْ تُحملَ على مَحْمَلِ الجدل والمناقشة، بهدف الإفحام والإقناع (أيضاً ← آصفي، ص 95). من ذلك، أنَّ الإمام عليًّا عليه السلام، قد أكَّدَ في الخطبة 172، وهو يشرح امتناع تأسيس الإمامة على رأي العوم، أنَّه على افتراض قبول

هذا الرأي، فإنَّ الأشخاص الذين لم يحضروا مراسم البيعة مُلزمون بقبول رأي المُبایعين. جاء هذا الكلام، في معرض الرد على اعتراض المخالفين (من بينهم معاوية)، الذي رفض إمامنة علىٰ عليه السلام بعد مقتل الخليفة الثالث. يعتقد بعض الفقهاء على الرَّغم من أنَّهم يرون أنَّ الأحاديث الآنفة الذكر قد جاءت في معرض الجدال، أنَّ هذه التوضيحات تدلُّ على ثبوت نوع من الولاية، من خلال التنصيب الإلهيّ، أو الحصول على نوعٍ من السلطة والمسؤولية الشعبية بواسطة البيعة (آصفي، م. ن، ص. ن؛ منتظرى، مج 1، ص 527؛ الحائرى، 1414هـ، ص 209-210؛ الموسويُّ الخلخالىُّ، ص 554-555).

سعى الكثيرون من الفقهاء والكتاب المعاصرين من أهل السنة، من خلال شرحهم للبيعة، بصفتها عقد يتضمن تعهداً من الطرفين (تعاهد)، ومقارنتها بعقد الوكالة، لجعلها معادلة لنظرية "العقد الاجتماعي" لروسو، الذي يُعدُّ من المبادئ الحقوقية الأساسية في الأنظمة الديمocrاطية، وعرضها كنظير للاحتجابات واستطلاع الرأي (الزحيلي، مج 6، ص 684؛ عبد المجيد، ص 106 وما بعدها؛ القاسمي، ص 273-276؛ عنايت، 1983م، ص 232-233، 236؛ نفسه، 1991م، ص 158). على هذا الأساس تكون بيعة الأكثريَّة الشعبية للحاكم ملزمةً للأقلية (القاسمي، مج 1، ص 276). الظاهر أنَّ الشيخ محمد عبده هو أول من طرح هذا الرأي في فقه أهل السنة (عنایت، 1983م، ص 236). لكنَّ هذه النظرية، تعرَّضت للنقد، حتى من أهل السنة، أوَّلاً لأنَّ ماهية البيعة، لا سيَّما في زمن النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، عقدُ أحاديِّ التعهُّد، وليس ثنائِيُّ التعهُّد (كعقد الوكالة)؛ ثانياً ليس بمقدور المُبَايِعِ، لا بالمنظار الفقهيِّ، ولا عملياً وواقعياً، أنْ يعزل المُبَايِعَ له، في حين أنَّ الموكِّل في عقد الوكالة يملك مثل هذا الحق (مكارم الشيرازي، مج 1، ص 517-518؛ معرفت، ص 90؛ الخطيب، ص 275-286)؛ ثالثاً، بحسب الرأي المشهور لدى أهل السنة، تثبت الحاكميَّة بعد بيعة أهل الحلِّ والربط، لكنَّ في النظام الديمocrاطيِّ، هنالك حقُّ لكلِّ فرد من أفراد الشعب. من هنا، فإنَّ لدى الحاكم في هذا النظام مسؤولية تجاه جميع أبناء الشعب، أمَّا في البيعة فهو مسؤول فقط أمام أهل الحلِّ والربط (الخطيب، ص 286-292)؛ رابعاً، لا دليل على أنَّ بيعة الأكثريَّة ملزمةً للأقلية التي لا تُبَايِعُ (← الحائرى، 1414هـ، ص 198-213). يُعترف عبد المجيد في أثناء مقارنته بين البيعة ونظرية العقد الاجتماعيِّ بوجود فوارق بينهما؛ من ذلك أنَّ أصلَ مشروعية الدولة في النظام كان أمراً إلهياً، وليس ناجماً عن البيعة، وإنما هو فقط طريقة لإيجاد الحكم الذي يتحقق بالبيعة، وهو مشابه لأنظمة الديمocratie (ص 347-349). مع

ذلك كله، لم يشرح بوضوح الدليل على أن هذه المشرعية إلهية، في الحكومة التي تتشكل بواسطة البيعة.

على الرغم من أن معظم فقهاء الإمامية المعاصرين، لا يقولون إلا بالدور التأكيدية للبيعة في زمن الإمام المعصوم عليه السلام، يرى بعضهم في شرحه لكتاب إعمال ولاية الفقهاء في عصر غيبة الإمام المعصوم، أن للبيعة دوراً أرفع من مجرد التأييد، أي نوع من الجانب الإنسائي التأسيسي. علمًا أن بعض الفقهاء، لم يحرروا تفكيكًا بين البيعة في زمان حضور المعصوم، وفي زمان الغيبة (← مكارم الشيرازي، مج 1، ص 519). فضلاً عن ذلك، يعتقد بعض الفقهاء المعاصرين، بنوع من تحقق الولاية والشرعية الشعبية للبيعة في عصر الغيبة. وعدد محدود منهم (من بينهم منتظرى، مج 1، ص 575-576) عدوا البيعة عقد وكالة ملزمة، موضوعه إنشاء الولاية، وإعطاء السلطة، وعلى هذا الأساس يرون أن انتخاب الأكثريّة وبيعتها ملزم ونافذ، حتى على الأقلية التي لا تُبَايِعُ. أخضع تفسير البيعة بأنّها عقد وكالة، وكذلك إلزامية مثل هذا العقد للمناقشة والانتقاد (مكارم الشيرازي، مج 1، ص 517-518؛ معرفت، م. ن، ص. ن).

من ضمن الأدلة المعتمدة لإثبات حصول الولاية بالبيعة، فضلاً عن الأحاديث المستلة من هج البلاغة، هنالك روايات تحدّر من نقض البيعة (نُكِثَ الصفة ← الكليني، مج 1، ص 405؛ المحسني، مج 2، ص 266، مج 27، ص 67-73، مج 64، ص 181-188؛ منتظرى، مج 1، ص 78، 525-529)، وفرق الجماعة (← الكليني؛ المحسني، م. ن، ص. ن). أحياناً كان يُسْتَنْدَ كذلك لإثبات هذه النظرية، وأن بيعة الأكثريّة ملزمة لجميع الناس، على سيرة المعصومين عليهم السلام، وسيرة المسلمين، وسيرة العقلاء (منتظرى، ص 574-576؛ آصفي، ص 92-95).

في المقابل ناقش عدّ من الفقهاء الأدلة المعتمدة، ففي نظرهم نقض بيعة حكام الباطل والجحود جائزه حكمًا، وأنّمّة الشيعة عليهم السلام - الذين طالما كان أتباعهم وشيعتهم أقلية - ما كانوا يحسبون البيعة لأولئك الحكام صحيحةً. من هنا قال البعض إنّهم "جماعة أهل الحق"، وذلك استناداً إلى أحاديث أخرى (← المحسني، مج 2، ص 265-267، مج 27، ص 67)، وفسّر البعض الآخر هذه الأحاديث، وكذلك الأحاديث المتعلقة بحرمة نكث البيعة، بأنّها البيعة للإمام المعصوم، أو الحمل على التقيّة، أو الأمر بالتقىّة، أو حسّبواها نوعاً من أنواع المجادلة (الموسوى الخالقى، ص 1399هـ، 168؛ الحائري، ص 580-581).

نفسه، 1414هـ، ص 211؛ مكارم الشيرازي، مج 1، ص 519-524؛ منتظرى، مج 1، ص 528). ممّا ذكره الحائرى 1414هـ، ص 209-213) أنَّ الأحاديث المعتمدة على الرَّغم من أنَّها يمكن أنْ تكون دالَّةً بذاتها على ثبوت الولاية بالبيعة، لكنَّها لا تستوجب نفوذ البيعة بالنسبة إلى الأقلية التي لم تُبايع؛ وهي فضلاً عن ذلك لم تكن موثوقة، حتى أنَّ احتمال كون بعضها موضوعاً احتمالاً قوياً. كذلك فإنَّ الاستدلال بأدلة وجوب الوفاء بالعقد والشرط ← منتظرى، مج 1، ص 522؛ معرفت، ص 86) قد انتقدَ من بعض النواحي (← الحائرى، 1399هـ، ص 164-165؛ نفسه، 1414هـ، ص 202-203؛ الموسوى الخلخالى، ص 580).

فضلاً عن ذلك، نوقش موضوع الاستناد إلى سيرة النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ والأئمَّة عليهم السلام، وكذلك سيرة المسلمين، لإثبات دلالة البيعة على مشروعية الانتخابات، وتحقق ولاية الحاكم بالنسبة إلى عامَّة الناس (← الحائرى، 1414هـ، ص 199-209). يرى منتقدو النظريَّة المذكورة، أنَّ البيعة لا تتيح سوى إمكانية إعمال الولاية للوليِّ الفقيه، ووضعها موضع التنفيذ، لكنَّ أساس مشروعية ولايته إلهيَّة، ومُقرَّةً من الشارع (نفسه، 1399هـ، ص 173؛ الموسوى الخلخالى، ص 579-581). يرى بعض هؤلاء الفقهاء (معرفت، ص 92-93)، أنَّ مجرد انتخاب الشعب في نطاق الفقهاء- الذي هو في اعتقاد البعض (آصفي، ص 92-93) موجب انعقاد الولاية للفقيه، أو البيعة- لا يتنافى وكونَ تنصيب الفقيه إلهيًّا؛ فالفقيه وإنْ لم يكن ليُنتخب على أساس النصِّ الإلهيَّ، لكنَّ انتخابه يتمَّ بناءً على الأوصاف والشروط الالزامـة للفقيه الحاكم التي وضعها الشارع، واتخذ الأمرُ شكلاً من أشكال التنصيب.

المصادر والمراجع: فضلاً عن القرآن؛ محمد مهدي آصفي، ولاية الأمر، طهران 1416هـ/1995م؛ ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث والأثر، ط. طاهر أحمد الزاوي ومحمود أحمد الطناحي، القاهرة 1383-1963هـ/1965-1963م؛ ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون، الجزء الأوَّل من كتاب العَبَر وديوان المبتدأ والخبر، بيروت 1391هـ/1971م؛ ابن شهرآشوب، مناقب آل أبي طالب، ط. هاشم رسولي الحلاقى، قم 1379هـ/[1984م]؛ ابن منظور، لسان العرب، قم 1363ش قدامة، المغنى، بيروت 1403هـ/1983م؛ محمد بن الطيب الباقلانى، التمهيد في الرد على الملحدة المعطلة والرافضة والخوارج والمعزلة، ط. محمود الخضيرى ومحمد عبد الهادى أبو ريدة، القاهرة

1366هـ/1967م؛ محمد بن اسماعيل البخاري الجعفري، صحيح البخاري، اسطنبول
 1401هـ/1981م؛ مصطفى بغا، بحث في نظام الإسلام، دمشق 1403هـ/1983م؛ عبد
 القاهر بن طاهر البغدادي، كتاب أصول الدين، اسطنبول 1346هـ/1928م، ط. أوفست
 بيروت 1401هـ/1981م؛ محمد تقى التستري، هـجـ الصـبـاغـةـ فيـ شـرـحـ نـجـ الـبـلـاغـةـ، طهران [لا
 تـاـ]؛ كاظم الحائري، أسـاسـ الـحـكـوـمـةـ إـلـاسـلـامـيـةـ: دراسـةـ إـسـتـدـلـالـيـةـ مـقـارـنـةـ بـيـنـ الـدـيمـقـرـاطـيـةـ
 والـشـورـىـ وـوـلـاـيـةـ الـفـقـيـهـ، بيـرـوـتـ 1399هـ/1979م؛ نـفـسـهـ، ولـاـيـةـ الـأـمـرـ فيـ عـصـرـ الـغـيـرـيـةـ، قـمـ
 1414هـ؛ محمد بن الحسن الحر العاملي، وـسـائـلـ الشـيـعـةـ إـلـىـ تـحـصـيلـ مـسـائـلـ الشـرـعـيـةـ، طـ. عـبـدـ
 الرـحـيمـ رـبـّـيـ الشـيرـازـيـ، بيـرـوـتـ 1403هـ/1983م؛ عبد الكـرـيمـ الـخـطـيـبـ، الـخـلـافـةـ وـالـإـمـامـةـ،
 بيـرـوـتـ 1395هـ/1975م؛ حسين بن محمد الراغب الإصفهانـيـ، مـفـرـدـاتـ أـلـفـاظـ الـقـرـآنـ،
 طـ. صـفـوانـ عـدـنـانـ الدـاـوـوـدـيـ، دـمـشـقـ 1412هـ/1992م؛ وـهـبـةـ مـصـطـفـىـ الـزـحـيلـيـ، الـفـقـهـ
الـإـلـاسـلـامـيـ وـأـدـلـتـهـ، دـمـشـقـ 1404هـ/1984م؛ محمود بن عمر الزمخشـريـ، الـكـشـافـ عـنـ غـوـامـضـ
حـقـائـقـ الـتـنـزـيلـ، بيـرـوـتـ [لاـ تـاـ]؛ جـعـفـرـ سـبـحـانـيـ، الـإـلـهـيـاتـ عـلـىـ هـدـىـ الـكـتـابـ وـالـسـنـةـ
وـالـعـقـلـ، بـقـلـمـ حـسـنـ مـحـمـدـ مـكـيـ الـعـالـمـيـ، مجـ4، قـمـ 1412هـ؛ نـفـسـهـ، مـفـاهـيمـ الـقـرـآنـ فيـ مـعـالـمـ
الـحـكـوـمـةـ إـلـاسـلـامـيـةـ، قـمـ 1364شـ [1985م]؛ عبد الرحمن بن أبي بكر السـيـوطـيـ، تـارـيـخـ
الـخـلـافـةـ، طـ. محمد مـحـيـيـ عبدـ الـحـمـيدـ، مصر 1378هـ/1959م؛ محمد عـلـىـ الشـهـرـسـتـانـيـ،
مـدـخـلـ إـلـىـ عـلـمـ الـفـقـهـ، لـنـدـنـ 1416هـ/1996م؛ جـعـفـرـ شـهـيـدـيـ، "الـبـيـعـةـ وـكـيـفـيـتـهـ فيـ الـتـارـيـخـ"
الـإـلـاسـلـامـيـ، كـيـهـانـ اـنـدـيـشـهـ [مـجـلـةـ كـيـهـانـ الـفـكـرـيـةـ]، العـدـدـ 26 (مهر وـآبـانـ 1368شـ [تـ1 وـ
ـتـ2 1989م])؛ محمد حسين الطباطبـائيـ، الـمـيـزـانـ فيـ تـفـسـيرـ الـقـرـآنـ، بيـرـوـتـ 1390ـ1ـ
1394هـ/1971ـ1974م؛ فـضـلـ بـنـ الـحـسـنـ الطـبـرـسـيـ، جـوـامـعـ الـجـامـعـ فيـ تـفـسـيرـ الـقـرـآنـ
الـجـيـدـ، تـبـرـيزـ 1379هـ؛ نـفـسـهـ، مـجـمـعـ الـبـيـانـ فيـ تـفـسـيرـ الـقـرـآنـ، طـ. هـاشـمـ رـسـوـلـيـ الـخـلـاتـيـ
وـفـضـلـ اللـهـ يـزـدـيـ الطـبـاطـبـائـيـ، بيـرـوـتـ 1408هـ/1988م؛ محمد بن جـرـيرـ الـطـبـرـيـ، تـارـيـخـ
الـطـبـرـيـ: تـارـيـخـ الـأـمـمـ وـالـمـلـوـكـ، طـ. محمد أـبـوـ الـفـضـلـ إـبـرـاهـيمـ، بيـرـوـتـ [1382ـ1ـ
ـ1387هـ/1962ـ1967م]؛ أـحـمـدـ فـؤـادـ عـبـدـ الـجـوـادـ عـبـدـ الـجـيـدـ، الـبـيـعـةـ عـنـ مـفـكـرـيـ أـهـلـ السـنـةـ
وـالـعـقـدـ الـاجـتـمـاعـيـ فيـ الـفـكـرـ السـيـاسـيـ الـحـدـيـثـ: درـاسـةـ مـقـارـنـةـ فيـ الـفـلـسـفـةـ السـيـاسـيـةـ، الـقـاهـرـةـ
1998م؛ عـلـيـ بـنـ الـحـسـنـ عـلـمـ الـهـدـىـ، الـشـافـيـ فـيـ الـإـمـامـةـ، مجـ2، طـ. طـهـرـانـ 1410هـ؛ عـلـيـ بـنـ
ـأـبـيـ طـالـبـ (عـ)، الـإـمـامـ الـأـوـلـ، نـجـ الـبـلـاغـةـ، طـ. صـبـحـيـ الصـالـحـ، بيـرـوـتـ [تـارـيـخـ الـمـقـدـمـةـ]
1387هـ؛ طـ. أـوفـسـتـ قـمـ [لاـ تـاـ]؛ حـمـيدـ عـنـيـاتـ، اـنـدـيـشـهـ سـيـاسـيـ درـاسـةـ مـعـاـصـرـ [الـفـكـرـ]

السياسيّ في الإسلام المعاصر]، ترجمه بالفارسية بهاء الدين خرمشاهي، طهران 1362ش [1983م]؛ نفسه، سیری در اندیشهٔ سیاسی عرب [رحلة في الفكر السياسي العربيّ]، طهران 1370ش [1991م]؛ محمد فاکر میدی، "البيعة ودورها في الدولة الإسلامية"، حکومت اسلامی مجلّة [الدولة الإسلامية]، السنة 2، العدد 3 (خریف 1376هـ)؛ خلیل بن أحمد الفراہیدی، کتاب العین، ط. مهدی المخزومی وابراهیم السامرائی، قم 1405هـ؛ أحمد بن محمد الغیومی، المصباح المنیر في غریب الشرح الكبير للرافعی، بیروت [لا تا.]؛ ظافر القاسمی، نظام الحكم في الشريعة والتاريخ الإسلاميّ، مج 1، بیروت 1405هـ/1985م؛ محمد بن أحمد القرطبی، الجامع لأحكام القرآن، مج 9، ج 18، القاهرة 1387هـ/1967م؛ ط. أوفست طهران 1364ش [1985م]؛ أحمد الكاتب، تطور الفكر السياسي الشیعی، لندن 1997م؛ محمد بن الحیی بن عبد الكبير الكتّانی، نظام الحكومة النبویة المسّمی التراتیب الإداریّة، بیروت [لا تا.]؛ محمد بن یعقوب الكلینی، الكافی، ط. علی أكبر الغفاری، بیروت 1401هـ؛ علیّ بن محمد الماوردی، الأحكام السلطانية والولايات الدينیة، بیروت 1410هـ/1990م؛ محمد باقر بن محمد تقی المخلصی، بحار الأنوار، بیروت 1403هـ/1983م، مج 29-30، ط. عبد الزهراء علویة، بیروت [لا تا.]؛ علیّ بن الحسین المسعودی، مروج الذهب ومعادن الجوهر، ط. محمد محبی الدین عبد الحمید، مصر 1384هـ/1964-1965م؛ محمد حسن المظفر، دلائل الصدق، بیروت [لا تا.]؛ محمد هادی معرفت، ولایت فقیه [ولاية الفقيه]، قم 1377ش [1998م]؛ لویس معلوف، المنجد في اللغة والأعلام، بیروت 1973-1982م؛ ط. أوفست طهران 1362ش [1983م]؛ محمد بن محمد المفید، الإرشاد، قم [لا تا.]؛ ناصر مکارم الشیرازی، أنوار الفقاهة: كتاب البتیع، ج 1، قم 1411هـ؛ حسینعلی منتظری، دراسات في ولاية الفقيه وفقه الدولة الإسلامية، قم 1409-1411هـ؛ محمد مهدی الموسوی الخلخالی، حاکمیت در اسلام [الحاکمیّة في الإسلام]، طهران 1361ش [1982م]؛

EI² ; s.v. "Bay^a" (by E. Tyan).

/السید رضا الهاشمی/

بیعة الرضوان، اسم بیعة جماعة من الصحابة للنبيّ صلی الله علیه وآلہ وسلم، المعروفة أيضًا باسم البیعة تحت الشجرة.

في السنة السادسة للهجرة، خرج النبي ﷺ صلى الله عليه وآله وسلم من المدينة، ترافقه مجموعة من أصحابه، لا يحملون سوى السيف في أغmadها، يتراوح عددهم من ألف وأربعين إلى ألف وستمائة، لزيارة بيت الله الحرام وأداء مناسك العمرة (ابن سعد، ماج 2، ص 95؛ الطبرى، ماج 2، ص 620-621؛ أبو الفتوح الرازى، ماج 17، ص 337)، حين وصلوا إلى الحدبىة، قرية على بعد منزلة من مكة وتشمل منازل من المدينة (ياقوت الحموي، ماج 2، ص 222)، قطع عليهم المكىون الطريق، ومنعوهم من متابعة السير إلى مكة. أوفد النبي ﷺ أول الأمر إلى مكة رجلاً يسمى خراش، أركبه ناقته، ليقول لزعمائها إن المسلمين لم يأتوا محاربين، وإنما يريدون زيارة بيت الله الحرام، ثم يعودون؛ لكن المكىين تعقبوا ناقة النبي ﷺ، وكان هدفهم قتل خراش، فحال بعضهم دون ذلك، وعاد خراش. فأرسل إليهم النبي ﷺ عثمان بن عفان (رض)، ولما تأخرت عودته، أشيع أن المكىين قد قتلوا. فجمع الرسول أصحابه، وباعه هؤلاء على أرواحهم. انعقدت هذه البيعة تحت شجرة (شجرة سمرة). عرف المسلمون بعد ذلك أن عثمان لم يقتل، ومن ناحية أخرى، صالح مبعوثه مكة النبي ﷺ في الحدبىة، وكان القرار أن يعود هذا العام إلى المدينة، ويزور مكة في العام الذي يليه (← الحدبىة* صلح؛ ابن سعد، ماج 2، ص 95-97؛ ابن هشام، ماج 2، ص 781-782؛ الطبرى، ماج 2، ص 631-632؛ حسن ابراهيم حسن، ماج 1، ص 127؛ أبو الفتوح الرازى، ماج 17، ص 336-337).

ذكرت هذه الحادثة في القرآن في الآية 18 من سورة الفتح، ومن هذه الآية استمدَّ الاسم بيعة الرضوان وبيعة الشجرة: **لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتَحًا قَرِيبًا**. اشتهر المبايعون بعد ذلك بأصحاب الشجرة. هنالك مسجدٌ كان قائماً في الموضع الذي عُقدت فيه هذه البيعة (ابن سعد، ماج 2، ص 99-101).

المصادر والمراجع: فضلاً عن القرآن؛ ابن سعد، الطبقات الكبرى، بيروت 1405هـ/1985م؛ ابن هشام، السيرة النبوية، ط. سهيل زكار، بيروت 1412هـ/1992م؛ حسين بن علي أبو الفتوح الرازى، روض الجنان وروح الجنان في تفسير القرآن، ط. محمد جعفر ياحقى ومحمد مهدي ناصح، مشهد 1365-1375ش [1986-1996م]؛ حسن ابراهيم حسن، تاريخ الإسلام: السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، ماج 1، القاهرة 1964م، ط. أوفست بيروت [لا تا.]؛ محمد بن جرير الطبرى، تاريخ الطبرى: تاريخ الأمم

والملوك، ط. محمد أبو الفضل ابراهيم، بيروت [1382-1962هـ 1967م]؛
ياقوت الحموي، معجم البلدان، ط. فرديناند ووستنفلد، لايزريغ 1866-1873م، ط.
أوفست طهران 1965م.

/السيد جعفر شهیدی/

بَيْعَةُ الْعَقَبَةِ. اسم البيعتين اللتين بايع بهما أهل يثرب النبي ﷺ عليه وآلـه وسلمـ. العقبة هي الجبل الطويل يعرض للطريق فـيأخذـ فيهـ، والمرقـى الصعبـ منـ الجـبالـ. المـوضعـ الـذـيـ بـوـيـعـ فـيـ النـبـيـ مـرـتـيـنـ، وـهـيـ عـقـبـةـ بـيـنـ مـيـنـ وـمـكـةـ، قـرـيـةـ مـنـ مـيـنـ وـبـعـدـ وـاقـصـةـ، وـفـيـهـ مـاءـ لـبـيـنـ عـكـرـمـةـ، بـيـنـهـاـ وـبـيـنـ مـكـةـ نـحـوـ مـيـلـيـنـ [خمسـةـ كـيـلـوـمـتـرـاتـ] (ياقوتـ الحـموـيـ، مـجـ 3ـ، صـ 692ـ 693ـ).

بوفاة أبي طالب وخديجة في السنة السابعة منبعثة النبوة، فقد النبي ﷺ من ناحية الحامي والمعين، ومن ناحية أخرى، اشتـدـ أـذـىـ المـشـرـكـينـ عـلـيـهـ (الـطـبـرـيـ، مـجـ 2ـ، صـ 343ـ 344ـ؛ ابنـ هـشـامـ، مـجـ 1ـ، صـ 280ـ؛ حـسـنـ اـبـرـاهـيمـ حـسـنـ، مـجـ 1ـ، صـ 91ـ). في السنة الحادية عشرة للبعثة التقى النبي ﷺ ستـةـ مـنـ أـهـلـ يـثـرـبـ (المـدـيـنـةـ). قالـ البعضـ إـنـ مـوـضـعـ هـذـاـ الـلـقـاءـ كـانـ بـالـقـرـبـ مـنـ تـلـكـ العـقـبـةـ (ياقـوتـ الحـموـيـ، مـجـ 3ـ، صـ 693ـ؛ الطـبـرـيـ، مـجـ 2ـ، صـ 353ـ؛ حـسـنـ اـبـرـاهـيمـ حـسـنـ، مـجـ 1ـ، صـ 94ـ؛ ابنـ سـعـدـ، مـجـ 1ـ، صـ 218ـ؛ ابنـ هـشـامـ، مـجـ 1ـ، صـ 289ـ؛ البـلـادـرـيـ، مـجـ 1ـ، صـ 275ـ)، وقالـ آخـرـونـ فـيـ مـيـنـ (ابـنـ سـعـدـ، مـ.ـ نـ، صـ.ـ نـ). كـانـ هـؤـلـاءـ السـتـةـ مـنـ الـخـزـرـجـ (قارـنـ يـاقـوتـ الحـموـيـ، مـ.ـ نـ، صـ.ـ نـ). سـأـلـمـ النـبـيـ عـنـ هـوـيـهـمـ، فـقـالـوـاـ لـهـ إـنـهـمـ مـنـ الـخـزـرـجـ؛ سـأـلـمـ النـبـيـ، أـلـتـمـ مـنـ حـلـفـاءـ الـيـهـودـ وـمـعـاهـدـيـهـمـ، فـقـالـوـاـ نـعـمـ. فـأـخـذـ النـبـيـ يـحـاـوـرـهـمـ، وـدـعـاهـمـ إـلـىـ إـلـسـلـامـ وـقـرـأـ عـلـيـهـمـ الـقـرـآنـ وـعـرـضـ عـلـيـهـمـ أـنـ يـمـنـعـهـ. كـانـ مـاـ سـمـعـهـ أـهـلـ يـثـرـبـ مـنـ الـيـهـودـ عـنـ قـرـبـ ظـهـورـ نـبـيـ فـيـ مـكـةـ، قـدـ لـفـتـ اـنـتـبـاهـمـ إـلـىـ النـبـيـ [فـقـالـوـاـ هـذـاـ وـالـلـهـ النـبـيـ الـذـيـ تـعـدـيـنـ بـهـ الـيـهـودـ، يـجـدـوـنـهـ مـكـتـوبـاـ فـيـ تـورـاـتـهـمـ]، وـقـدـ وـلـدـ ذـلـكـ الـأـمـلـ لـدـيـهـمـ فـيـ أـنـ يـضـعـ حـلـوـلـهـ بـيـنـ ظـهـرـانـيـهـمـ حـدـاـ للـعـدـاءـ بـيـنـ الـأـوـسـ وـالـخـزـرـجـ (الـلـاطـلـاعـ عـلـىـ الـحـرـبـ بـيـنـ الـقـبـيلـيـنـ → بـعـاثـ*). حـيـنـ عـادـوـاـ إـلـىـ يـثـرـبـ ذـكـرـوـاـ أـمـرـ رـسـوـلـ اللـهـ صـلـيـ اللـهـ عـلـيـهـ وـآلـهـ وـسـلـمـ، فـأـجـابـهـمـ نـاسـ وـفـشـاـ فـيـهـمـ إـلـسـلـامـ.

في السنة الثانية عشرة منبعثة النبوة وـافـيـ موـسـمـ الحـجـ مـنـهـمـ اـثـنـاـ عـشـرـ رـجـلـاـ، هـؤـلـاءـ السـتـةـ وـسـتـةـ آخـرـونـ، مـنـ سـبـعـةـ بـطـوـنـ مـنـ الـأـوـسـ وـالـخـزـرـجـ، التـقـواـ النـبـيـ فـيـ العـقـبـةـ، فـأـمـنـواـ

وأسلموا وبايعوا النبيّ على أن لا يشركوا بعبادة الله أحداً، ولا يسرقوا، ولا يقتلوا أولادهم، ولا يأتوا بالبهتان، وأن يطيعوا الرسول لما فيه خيرٌ لهم؛ فإن وفوا بهذه البيعة فإن الجنة مأواهم، وإن نقضوها، فعلى الله حسابهم، إما أن يغفر لهم، أو يعذبهم. أطلق على هذه البيعة اسم بيعة النساء (حسن ابراهيم حسن، م吉 1، ص 94-95؛ البلاذري، م吉 1، ص 275-276؛ ابن هشام، م吉 1، ص 289-291، 293؛ ابن سعد، م吉 1، ص 220؛ الطبرى، م吉 2، ص 353-357). هنالك من قال إن هذه البيعة قد سميت بيعة النساء لأن عفراة ابنة عبيد بن ثعلبة كانت في عداد المُبَايِعِينَ، وكانت أول امرأة تبَايِعُ النبيّ (حسن ابراهيم حسن، م吉 1، ص 95). لكن، ييدو أن تخریج هذه التسمیة على هذا النحو، لا أساس له من الصحة، فلم يكن من ضمن هذه المجموعة نساء، ولكن بما أن البيعة نصّت أن يكون النبيّ واحداً منهم، سميت البيعة بيعة النساء. لكن الأصح أنها سميت كذلك، على ما ييدو، لأنها نصّت على أن لا تقع حربٌ بين المسلمين والكفار، وأن الحرب من شؤون الرجال، سميت بيعة النساء (السهمي، م吉 4، ص 70). بعد هذه البيعة بعث رسول الله مصعب ابن عمير معهم ليعلّمهم القرآن (الطبرى، م吉 2، ص 357؛ ابن سعد، م. ن، ص. ن؛ ابن هشام، م吉 1، ص 293؛ البلاذري، م吉 1، ص 276؛ حسن ابراهيم حسن، م. ن، ص. ن).

ذكر بعض المؤرّخين أن إرسال مصعب كان بعد بيعة العقبة الثانية (البلاذري، م吉 1، ص 277). في موسم الحج، في السنة الثالثة عشرة منبعثة، اجتمع في العقبة سبعون رجلاً أو اثنان وسبعون رجلاً وامرأتان. وحضر العباس عم النبي معه، فقال للمجتمعين: إنَّ مُحَمَّداً منّا حمِيَّنا ما في وسعنا، وهو يريد الآن أن يأتِي إلينكم. فإنْ كان باستطاعتكم حمايته فحسناً، وإلا فخلّوه بيننا. قالوا: نحن نبَايِعُه ونعاوه، نحارب من حاربه ونسالم من سالمه، لذا سميت هذه البيعة بيعة الحرب. بعد هذه البيعة اختار النبي من بينهم اثنين عشر رجلاً جعلهم نقباء عليهم (حسن ابراهيم حسن، م吉 1، ص 96-98؛ البلاذري، م吉 1، ص 277-278؛ ابن سعد، م吉 1، ص 221-222؛ الطبرى، م吉 2، ص 362-363؛ ابن هشام، م吉 1، ص 300-301). أصبحت هذه البيعة مقدمة هجرة النبي إلى يثرب.

المصادر والمراجع: ابن سعد، الطبقات الكبرى، بيروت 1985هـ/1405م؛ ابن هشام، السيرة النبوية، ط. سهيل زكار، بيروت 1992هـ/1412م؛ أحمد بن يحيى البلاذري، كتاب جمل من أنساب الأشراف، ط. سهيل زكار ورياض الزركلي، بيروت 1996هـ/1417م؛ حسن ابراهيم حسن، تاريخ الإسلام: السياسي والديني والثقافي

والاجتماعي، مجلد 1، القاهرة 1964م، ط. أوفست بيروت [لا تا.]; عبد الرحمن بن عبد الله السهيلي، الروض الأنف في شرح السيرة النبوية لابن هشام، ط. عبد الرحمن وكيل، القاهرة 1389هـ/1969م؛ محمد بن جرير الطبرى، تاريخ الطبرى، تاريخ الأمم والملوك، ط. محمد أبو الفضل ابراهيم، بيروت [1382-1387هـ/1962-1967م]؛ ياقوت الحموي، معجم البلدان، ط. فرداند ووستنبلد، لايزieg 1866-1873م، ط. أوفست طهران 1965م.

السيد جعفر شهيدى/

البيعة، بالكسر، مركز عبادة أهل الكتاب [كنيسة النصارى، وقيل كنيسة اليهود]. وردت هذه اللفظة مرة واحدة في القرآن (الحج: 40)، بحالة الجمع: بيع. ذكرها السيوطي (الإتقان، مجلد 2، ص 131) في عدد الألفاظ القرآنية غير العربية، وذكر الجواليقى (ص 81)، أن هنالك من يعد لفظة البيعة من الفارسيّ المُعَرب، لكن الجُفري (ص 150)، ردّ هذا الرأي، مدعياً أن سريانيتها واضحة. فهو يقول إنّ الأصل السريانى للفظة البيعة. معنى "البيض" (قارن لفظة البيض العربية. معادلتها العُرْبِيَّةُ وَالْأَرَامِيَّةُ)، واستُخدمت بعد ذلك مجازاً اسمًا للجزء الأعلى من القنطر الدائرية، وكذلك اسمًا لمراكم العبادة ذات القباب.

فسرّ علماء اللغة وأصحاب الماجم لفظة البيعة، والتي ورد جمعها أيضاً بيعات وبيعات، في معظم الأحيان. معنى مركز عبادة النصارى أو الكنيسة، علمًا أنّهم قالوا أيضاً إنّها معبد اليهود. عدّها البعض أيضاً مرادفاً للفظة الكنيسة*، وأنّها أطلقت في الأصل على جميع معابد اليهود والنصارى، علمًا أنّ المشهور أنّ الكنيسة اسم خاص. بمعبود اليهود (الجرجاني؛ ابن منظور؛ الشرتوني؛ صفي بوري؛ البستانى؛ دوزي، المادة نفسها).

نقل المفسرون أقوالاً مختلفة حول البيعة في أثناء تفسيرهم لآية "... لَهُدِّمَتْ صوامعُ وبيعٌ وصلواتٌ ومساجدٌ..." (الحج: 40)، التي هي جزء من آيات الجهاد، من هذه الأقوال: البيعة مَعْبُدُ اليهود، كما أنّ الصومعة معبد النصارى، مع الفارق أنّ الصومعة تُبنى في الصحراء والبيعة في الحضر؛ وعلى العكس فالصومعة المشتركة بين اليهود والنصارى وال المسلمين، هي خاصة بالنصارى؛ كما أنّ الصومعة والصلوة (مفرد صلوات) تعبّران عن المسجد؛ هي اسم المعبد في شريعة موسى عليه السلام؛ هي اسم المعبد في شريعة عيسى عليه السلام (← الطبرسي؛ الطوسي؛ البيان؛ أبو الفتوح الرازي؛ السيوطي؛ الدر المنشور، الآية نفسها).

لم يُجزِّ فقهاء الإمامية إقامة البيعَ وغيرها من معابد أهل الكتاب في البلدان الإسلامية، أو في البلدان التي فتحها المسلمون حرباً. إنّما أجازوا ضمن شروطِ الإبقاء على هذه المعابد وترميمها في البلدان التي فُتحت صلحاً (النجفي، مج 21، ص 280-284؛ الحقّ الحلّي، مج 1، ص 331؛ الطوسي، المبسوط، مج 2، ص 45-46). فقهاء أهل السنة أيضًا متّفقون على أنَّ إنشاء بيعة أو كنيسة وما شابه لأهل الذمّة في البلاد الإسلامية غير جائز، أمّا ترميمها فجائز (الزحيلي، مج 6، ص 448). ورددت في الكتب الفقهية في باب الوقف أيضًا أحكام حول البيعة والمعابد الأخرى لغير المسلمين. من ناحية أخرى حُسِّبَ عدم التعرّض لمعابد أهل الذمّة حقّاً من حقوقهم (م. ن، مج 6، ص 450).

كانت لفظة البيعة متداولة قبل الإسلام، وعُثر عليها في الكتابات الأثرية في جنوب شبه الجزيرة العربية، واستُخدمت مرات عدّة في الشعر الجاهلي (جفرى، م. ن، ص. ن). وصف ناصر خسرو أيضًا في مدوّنة رحلته [سفر نامة] (ص 62-63) كنيسةً تسمّى بيعة القُمامَة [= كنيسة القيامة] في بيت المقدس، يعظمها النصارى كثيراً، ويأتي لزيارتها سنويًا الكثير من الناس من بلاد الروم، ويقضى فيها القسيسون والرهبان الأيام والليالي في قراءة الإنجيل والصلوة والعبادة.

المصادر والمراجع: فضلاً عن القرآن؛ ابن منظور، لسان العرب، ط. علي شيري، بيروت 1992هـ/1412م؛ حسين بن علي أبو الفتوح الرازي، روض الجنان وروح الجنان في تفسير القرآن، ط. محمد جعفر ياحقى ومحمد مهدي ناصح، مشهد 1365-1375ش 1986-1996م؛ بطرس البستاني، محيط المحيط: قاموس مطول للغة العربية، بيروت 1867-1870م؛ علي بن محمد الجرجاني، ترجمان القرآن، ط. محمد دبیر سیاقی، طهران 1360ش [1981م]؛ آرتور جفرى، واژه‌ای دخیل در قرآن مجید [الألفاظ الدخيلة في القرآن الكريم]، ترجمه بالفارسية فریدون بدله ای، طهران 1372ش [1993م]؛ موهوب بن أحمد الجوالیقی، العرب من الكلام الأعجمي على حروف المعجم، ط. أحمد محمد شاکر، ط. أو فست طهران 1966م؛ راینهارت پیتر آن دوزی، تکملة المعاجم العربية، ترجمه بالعربية محمد سلیم النعیمی، العراق 1978م؛ عبد الرحمن بن أبي بكر السیوطی، الإتقان في علوم القرآن، وهبة مصطفی الزحيلي، الفقه الإسلامي وأدله، دمشق 1404هـ/1984م؛ عبد الرحمن بن أبي بكر السیوطی، الإتقان في علوم القرآن، ط. محمد أبو الفضل ابراهیم، قم 1363ش 1984م؛ نفسه، الدُّرُّ المنشور في التفسير بالمؤلف، بيروت [لا تا.]؛ سعید الشرتونی، أقرب

الموارد في فُصح العربية والشوارد، قم 1403هـ؛ عبد الرحيم بن عبد الكريم صفي بوري، منتهى الأرب في لغة العرب، ط. حجرية طهران 1297-1298هـ، ط. أوفست طهران 1377هـ؛ فضل بن الحسن الطبرسي، مجمع البيان في تفسير القرآن، ط. هاشم رسولي الملاّتّي وفضل الله يزدي الطباطبائي، بيروت 1408هـ/1988م؛ محمد بن الحسن الطوسي، البيان في تفسير القرآن، ط. أحمد حبيب قصیر العاملی، بيروت [لا تا.]. نفسه، المبسوط في فقه الإمامية، مج 2، ط. محمد تقی الكشفي، طهران 1387هـ؛ محمد بن عمر الفخر الرزازی، التفسير الكبير، القاهرة [لا تا.]. ط. أوفست طهران [لا تا.]. جعفر بن الحسن الحّق الحّلّي، شائع الإسلام في مسائل الحلال والحرام، ط. عبد الحسین محمد علی، النجف 1389هـ/1969م؛ ناصر خسرو، سفرنامه حکیم ناصر خسرو قبادیانی مروزی [رحلة الحکیم ناصر خسرو القبادیانی المروزی]، ط. دبیر سیاقی، طهران 1363ش [1984م]؛ محمد حسن بن باقر النجفی، جواهر الكلام في شرح شرائع الإسلام، ط. الشیخ عباس القوجانی، بيروت 1981م.

/مالك الحسيني/

البيك، مسجد، مبني في إسطنبول، يعود إلى القرن العاشر الهجري. يقول حسين أفندي إيوان سرائي، أنّ باني هذا المسجد هو محمد بيك سلحاشور، الموجود ضريحه أيضًا بالقرب من هذا المسجد، ويضيف أنّ هذا المسجد كان يُسمى أيضًا مسجد صراحی، لكنَ اسماعيل بيك زاده عثمان وخليل أدهم سمي هذا المسجد: مسجد محمد بيك صراحی. ليس في المتناول معلومات عن تاريخ بناء هذا المسجد وعن بانيه، لكنَ يُستنتج من طراز بنائه وخصائصه المعمارية، أنَّه يعود إلى القرن العاشر الهجري؛ ولما يتمتع به هذا المبني الصغير من تنظيم بنويّ ممتاز ودقة في الصنع، تُسب بناه إلى سنان [أشهر المعماريين الأتراك]، لكنَّ اسم هذا المسجد لم يرد في فهرس آثار سنان.

في العام 1346هـ/1928م صُنف مسجد البيك ضمن المباني المهدمة، ولم تفلح قيمته الفنية في إدراجه ضمن لائحة المساجد التي يجب أن تتم الحفاظة عليها. ظلَّ هذا المسجد سنتين عديدة خربةً لا سقف له، إلى أنَّ أعيد ترميمه وإحياؤه في العام 1389هـ/1970م.

عain أكرم كوتشو¹ المسجد في العام 1380هـ/1961م، فأشاد بجماليه، وأوصى بضرورة ترميمه. صحن المسجد مرتفع عن مستوى الشارع الحاذي له من الأمام. جدرانه مربعة، ومبنيّة بالحجارة المربعة وبالآجر، أمّا مدخله فمن خلال صحنٍ بأبهٍ يفتح على الشارع، ويجب احتياز عدّة درجات للوصول إليه. بجانب هذه الدرجات، مئذنة صغيرة منفصلة عن الجدار. بمحاذاة المسجد رواقٌ مستطيل الشكل مقابل مدخل مقبرة مربعة. ومن خلال هذا الرواق يتم الدخول إلى محوّطة المسجد الرئيسية. هذا المسجد بالظلّة والمقبة، وطراز مئذنته، نادر المثال في الفنّ [المعماريّ] التركيّ. لئذنته المشيدة على العكس من السائد، مقابل جدار القبلة، واجهةً جميلةً ودقيقة الصنع. هذه المئذنة، كالمسجد نفسه مبنيّة بالحجارة المربعة الزوايا وبالآجر. كان مسجد البيك يتضمّن مقبرةً، وأشجاراً في محيطه.

المصادر والمراجع: حسين إيوانسراي، حديقة الجوامع، اسطنبول 1281هـ، مج 1، ص 280؛ إسماعيل بيك زادة عثمان بيك، مجموعه جوامع [مجموعه المساجد]، اسطنبول 1304هـ، مج 2، ص 2؛

....
أجنبيّ

.....

للاطّلاع على صورة كاملة للمصادر ← د. أ. د. التركية، المادة نفسها.

سماوي إبيجة، ملخصاً من (د. أ. د. التركية)/

البيك والبيغم، صفتان أو لقبان تركيّان.

1) **البيك** (بيك/بك بالفتح والكسر، وأيضاً بالڭاف الفارسية؛ اليوم "بِي" "bey"). هذه الكلمة هي الصورة النهائية للقب قديم في اللغة التركية العثمانية، وهو في التركمانية beg وفي التركية الشرقية big، وفي القوزاقية biy/bi. هذا اللقب يُشاهد أيضاً في الكتابات الحجرية الأورخونية، وفي النصوص الأويغورية، ويُستخلص من المصادر الشرقية والغربية قبل الإسلام، وبعده أيضاً، أنه كان متداولاً في أوساط القبائل والحكومات التركية، ومن المؤكّد أنَّ له ارتباطاً من حيث الاشتراك بلقب "بغي" begi المغوليّ، و "بوغين" bögin الشيشنّيّ، و "بيله" beyle المنشويّ. يَدّعى فريقٌ من علماء اللغات من بلوشه² (مج 12، ص 92) وحتى

¹ - R. Ekrem Koçu.

² - E. Blochet

كوتويتش¹، أنه مأخوذ من اللقب الصيني القديم "پك"؛ لكن في المقابل يرجح عدّ من المحققين أن هذه اللفظة هي نفسها "بغ" (الفارسية القديمة: "بگه"؛ السنسكريتية: "هاگا"؛ البهلوية: "ب، bē"؛ اللقب الذي كان يطلق على الملوك الساسانيين. معنى السيد، والرب (← بروكلمان، ص 223). في كل الأحوال، إن الأتراء هم على الأرجح أول من استخدم هذا اللقب، وأخذته عنهم الشعوب الآلانية الأخرى. يمكننا تلخيص المعانى الأساسية لهذه اللفظة في مرحلة حكم الـ"غوك-الأتراء" (الأتراء القدماء) على النحو التالي: أ) لقب رؤساء القبائل الصغيرة، أو رؤساء المجموعات الكبرى المتشكلة من القبائل الصغيرة، وهذا اللقب أدنى مرتبة من لقب "الخان"؛ أو "قاغان" [قاآن/خاقان]، ونحن نعلم أن سلطان الغوك-الأتراء، كان قد منح بارس بيك (بَرْسْبَاي)، رئيس القرقيزيين لقب "قاغان". ب) مفهوم "بِي لر" (جمع بيك = البكوات)، في الكتابات الحجرية الأرخونية، يعبر عادةً عن الطبقة الممتازة والعريقة، التي تختلف عن طبقة عامة الشعب (بودون)². بهذا المعنى يندرج تحت لقب "بِي" جميع أمراء العائلة المالكة أيضاً. ج) كل واحد من ذوي النفوذ وأصحاب المناصب الكبار والصغر، أي الموظفون، يُمنح أيضاً هذا اللقب. هؤلاء، على الرغم من ذكرهم في بعض عبارات الكتابات الحجرية، منفصلين عن عامة الشعب والبكتوات، لكن في بعض الأماكن ذُكرُوا. معنى "الموظفيون البكتوات" (نصوص الكتابات الحجرية وترجماتها، التي نشرت بجهود تامسن ورودولف). توجد هذه الكلمة بهذه المعانى نفسها لدى الأويغوريين (← النصوص المنشورة بفضل مولر، وبَنْغ وآخرين)، بناء على ما كتبه ابن فضلان^{*}، وكتابات كونستانطينوس بورفiroغنتوس³، كان هذا اللقب موجوداً في أوساط الخزر (← نِمِث غِيولا⁴، ص 212). كان هذا اللقب على الأرجح موجوداً أيضاً في أوساط البلغاريين الأوائل (البدو) (← كادلек⁵، ص 68).

حافظ الأتراء بعد إسلامهم، ودخولهم حياض الحضارة الإسلامية، على هذا اللقب. معناه ومضمونه السابقين. كان الموظفون الحكوميون القراطسيون، ذوي المقام الرفيع يستخدمون هذا اللقب أيضاً (مثلاً محمود بيك نائب على تغين حاكم سمرقند؛ البيقهى، مع 1، ص 420). كان الأوغوز الأوائل، مؤسسو دولة السلاجقة، لا يحملون في البداية سوى لقب البيك (← طغول بيك^{*}). نرى في المصادر التاريخية بشكل واضح، أن زعماء الأوغوز والقرولق كانوا يحملون في القرنين الخامس والسادس المجريين لقب "البيك" (لاشين بيك، طوطى بيك،

¹ - W. kotwicz

² - Budun

³ - Konstantinos porphyrogenetos

⁴ - Nemeth Gyula

⁵ - K. Kadlec

وأمثالهما). كان لكلمة "بكتش" المتدولة في أواسط القراخانيين في القرن الخامس المجري أيضاً، كما ذكر محمود الكاشغري (مج 1، ص 297 وما بعدها)، صلة بكلمة "بك"، وهي تصغير لها. كان توقر (أو تقر) بيك الكاشغري، الذي استوزره السلطان سنجر لمدة وجية، كما يتضح من لقبه (بيك)، من العرق التركي الأصيل.

منذ عهد السلاجقة العظام، نرى بين الحكومات التركية المختلفة، لقب "البيك" معادلاً للقب "الأمير" العربي؛ مثلاً بدلاً من أمير الجيوش "جيوش بيكي" [بيك الجيوش]؛ وبدلاً من أمير العطاء "داد بيكي"، وبدلاً من أمير الأمراء "بيكلريبيكي". وعلى الرغم من المحافظة في المؤسسات الإدارية، بتأثير من التقاليد الإدارية القديمة، على المصطلحات القديمة العربية والفارسية، بدأ استخدام الأسماء والألقاب التركية إلى جانب هذه المصطلحات، وبعكتنا عد ذلك دليلاً على تأثير اللغة الحكية إلى حد ما في اللغة الرسمية، وحسبانه أحد السمات الخاصة بعصر السلاجقة الكبار. تزايدت قوّة هذا التأثير في عصر الإيلخانيين وآلتون أردو [= العسكري الذهبي]، وشاع استعمال لقب البيك بدلاً من الأمير (مثل أولوس بيكي، تومان بيكي، مين بيكي، يوزبيكي، وأون بيكي).

نلاحظ، فضلاً عن الألقاب: خاقان*، وخان*، وسلطان* التي كانت متدولة لدى السلاطات الكبيرة مثل القراخانيين والسلاجقة، أنَّ عدداً من الحكام التابعين للسلاطات الصغيرة والأمراء، كانوا يستخدمون لقب الأمير والبيك؛ ومن المعلوم أنَّ الحكام العثمانيين الأوائل، وأمراء الأناضول والقراقوييلوين والأق قوييلوين استخدموه هذا اللقب أيضاً (نعلم من خلال مدوّنة الدستور: دستورنامه للأنوزي أنَّ آيدين أوغوللاري [= بنو آيدين]، كانوا ينحوون قادتهم الكبار لقب أولوبيك [= البيك الكبير]، وفي القرن الثامن المجريّ، كان لقب البيك متدولاً لدى بعض السلاطات كالجلائريين؛ حتى أننا نلاحظ أنَّ فاتحَا كبيراً كتيمور [تيمورلنك]، لم يستخدم لقب الخان الخاصّ بسلاطنة جنكيز، وفضل لقب الأمير أو البيك.

في القرن التاسع المجريّ، في المناطق التي كان يحكمها أولاد تيمور، وفي الحكومات التركمانية، كان الأتراك الأقحاح، ورؤساء القبائل يُمنحون لقب بيك، أو معادله العربيّ أي "الأمير" أو "المير"؛ مع الفارق أنَّ اللقب التركيّ كان يذكر في آخر الاسم، واللقب العربيّ في أوله مثل "مير عليشير"، أو "عليشير بيك"، لكنَّ في الحالات التي لم تكن فيها لفظة البيك لقباً وإنما جزء من اسم علم مركب، كانت تأتي في معظم الأحيان في أول الاسم، مثل "بيك تكين" و "بيك تيمور". وهذه القاعدة نفسها كانت تُراعى في الكلمات التي تُستخدم فيها

كلمة "بای" بمعنى "المقتدر" مثل بایتوz وبایقرا وباییرس (بیئرس) [← بای*]. في الهند كان أعقاب الأتراك - المغول، أي المتحدرون من الأرستقراطية العسكرية، يضيفون لقب بیک إلى أواخر أسمائهم للدلالة على أصالتهم، كما ثلّاحظ بكثرة في بلاطات الحكام الأتراك في الهند كلمة "خاُن" (خان)، مؤنث الخان، و "بیغیم = بیگ" مؤنث "بیگ" = بیک [← بایرنامة* [تاريخ بایر، وتتمة المقالة]. مع ذلك استُخدمت كلمة "بیک" كذلك جزءاً من أسماء السيدات مثل "ساتي بیک خان" ابنة الحاكم الإيلخاني أو بحاليتو. الشاهد الآخر على هذا النحو من الاستعمال، اسم "بیک خان"، الذي كان متداولاً منذ زمن بعيد لدى أتراك الأناضول.

في العصر الصفوي فقد لقب "بیک" أهميته السابقة، فالسلطانين الصفویون استخدموه لقب "الشاه" ، وكانوا يمنحون كبار أمرائهم لقب السلطان أو الخان، يغون من وراء ذلك الخطّ من قدر ألقاب السلطانين العثمانيين وخوانين آسيا الوسطى، الذين كانوا يُعدّون أعداءهم السياسيين. حين كان يحيى وقت ترقية رؤساء القبائل وكبار الموظفين الذين كانوا يحملون لقب البیک، يُمنحون لقب السلطان، وبعده لقب الخان (← أحسن التواریخ و عالم آرای عباسی وغيرهما من مصادر العصر الصفوي). في الدولة العثمانية كان زعماء القبائل وكبار الموظفين العسكريين وغير العسكريين، وأبناء الشخصيات الرسمية البارزة يُمنحون لقب "بیک". مع ذلك، حافظ لقب بیکلریکی * [بیک البکوات = أمير الأُمراء] لعدة قرون، على الأهمية التي كانت له في عصر سلاجقة الأناضول والإيلخانيين؛ واستمرّ أيضاً بعد عصر التنظيمات (عصر الدستور = الإصلاحات الإدارية والثقافية والأدبية في عصر عبد الحميد في العام 1255هـ/1839م)، رتبة تأتي بعد "الوزير" والـ "بala [الرفيع]"، إلى أن الغيت المناصب غير العسكرية. كانت كلمة بکلکچی (بیکلیکچی) بمعنى رئيس الديوان موجودة في المؤسسات الإدارية العثمانية، حتى القرن الثالث عشر الهجري/التاسع عشر الميلادي، وإلى حدّ علمينا بقيت حِرفة "بکلکچیلیک" الديوان الهمایونی [السلطاني] في إدارة صدارة الحكومة المركزية، جزءاً من الوظائف الكبرى إلى حين سقوط السلطنة.

كانت كلمة بیک منذ قرون خلت مستخدمةً لقباً في أواسط رؤساء القبائل الكردية، مستوحاً من الأتراك (← شرف خان البدليسي)، شرفنامة [تاريخ شرف]، وتسربت بعد قيام الدولة العثمانية إلى مختلف لغات البلقان (← لوکوتش¹، ص 24). في أواسط القرن الثالث

¹ - Karl Lokotsch.

عشر الهجريّ، كان يوجد في المؤسّسة العسكريّة القاجاريّة أصحاب مناصب يحملون لقب "بيك زادة"، كان تحت إمرتهم قادة مجموعات المائة نفر، يحملون لقب "سلطان" (سروان). كان أصحاب المناصب هؤلاء لاتتساهم إلى العائلات الكبيرة، يحملون لقب "بيكزاده" [سليل البكوات] (بلن، ص 38).

المصادر والمراجع: محمد بن الحسن البيهقيّ، تاریخ البیهقی، ط. سعید نفیسی، طهران 1309ش [م 1930]؛

أجنبي...

محمد فؤاد كوبيللي (د. أ. التركية) /

2) بیغم (بیگم، مخفّفها بگم [بغم]، في فارسیّة شبه القارّة الهندیّة: بیگم [بیغم]، وفي التركیّة بیگم [بیغم]، مونث بیگ [البیک]، لقبٌ فخریٌّ، خاصٌّ حصرًا بالأمیرات، في الحقبة المغولیّة من تاریخ الهند. كانت جهان آرا* بیغم، ابنة شاه جهان [الملک] المعروف في سلالة تیموریّی الهند، حك: 1038-1069هـ العازبة، في أثناء حكم أبيها، تحمل اللقب الرسمیٌّ "پادشاه بیگم" [جلالة الملكة]، واحتفظت بهذا اللقب، حتى بعد اعتقال شاه جهان وسجنه (كانت تُدعى أيضًا "بیغم صاحب" أو "بیگم صاحبه" [صاحبة الجلالة]. في عهد السلطان أکبر [ثالث الملوك التیموریّین في الهند: حك 963-1014هـ]، كانت البیغمات (الملکات والأمیرات) يتّقاضین سنویًّا بين 1028، 1، 610، 1 روییّة راتبًا دائمًا. بعد موت جهانغیر [ملك الهند المغوليّ، حك: 1014-1037هـ]، جعل خليفة شاه جهان، لأرمته جهان نور راتبًا سنویًّا قدره 200,000 روییّة. كانت ممتاز محل زوجة شاه جهان، تتقاضی سنویًّا 1,000,000 روییّة من الخزانة الملكیّة، في حين أنَّ ابنة شاه جهان پادشاه بیغم كانت تتقاضی سنویًّا 600,000 روییّة، نصفها نقدًا ونصفها أملالًا. جعل أورنگ زیب [سادس ملوك التیموریّین، حك: 1068-1118هـ]، لهذه الملكة راتبًا سنویًّا مقداره 200,000 روییّة.

قبل تشكیل دولة الباکستان 1366هـ/1947م، كانت الوحيدة من السيدات المتنمیات إلى عائلات الأشراف والأکابر المسلمين تُدعى بیغم؛ أمّا الآن ففي الباکستان جميع السيدات المتزوّجات، باستثناء نساء الطبقة المعدمة، تُدعى الواحدة منهن بیغم، بمعنى السيدة. هذه الكلمة غير متداولة بهذا المعنى في الدول العربية أو الفارسیّة اللغة. من العادات والتقالید في الباکستان

أن يخاطب الأزواج زوجاً لهم على الماء، أو في الخلوة بصفة بيعم، ويلتزمون بعدم ذكر أسمائهم، وفي الهند والباكستان، ينادي الخدم ربة المنزل بيعم. وتضاف هذه الكلمة كلاحقة إلى أسماء الوليدات حديثاً، لكن هذه العادة سرعان ما نُسخت.

المصادر والمراجع: أحمد الدهلوi، فرهنگ آصفیه [المعجم الآصفیّ]، لاهور 1986م، مادة "بیگم"؛ عبد الحمید الlahori، پادشاہ نامہ [تاریخ الملکوں] (مجموعۃ الآثار الہندیّۃ)، مج 1، ص 96، الفہرنس؛ احمد عبد العزیز بن محمد النائطی، آصف اللغات، حیدر آباد الدکن 1327-1340ھ، مادة "بیگم"؛

أجنبی....

/بزمي الأنصاري (د. الإسلامية)

البيمارستان، المكان الذي يجري فيه علاج المرضى وتطبيتهم. هذه الكلمة الفارسية مركبة من "بیمار" [المريض] واللاحقة المكانية "ستان". أمّا مرخّمها "مارستان" فبمعنى "دار المجانين" على الأغلب، سُميَّ في الأندلس "ملاستان/مارستان"، وفي مصر "مُرْسْتَان" ، وفي المغرب "مُرْسْتَان/مِسْتَرَان". كان اسم مستشفى/مدرسة الطب في جنديسابور البيمارستان (← تتمّة المقالة، قسم إيران)، وهذا دليلٌ على قدَم رواج كلمة بیمارستان. يُستخلص من نصّ وقفيّة المستشفى الذي بناه تمّعاج بُغرا، أول ملك قراخانی مسلم، في العام 458ھ في سمرقند، على استخدام الاسم "دار المرضى" في تلك الآونة، بدلاً من "بیمارستان"، وفي عصر السلجوقية "دار العافية" و "دار الشفاء". كان العثمانيون يُستخدمون فضلاً عن "دار الشفاء"， الأسماء: "دار الصحة" و "شفاخانة" [دار الشفاء]، و "بیمارخانة" [دار المرضى]، و "تیمارخانة" [دار المجانين]، وابتداءً من القرن الرابع عشر الهجري/العشرين الميلادي، بعد تأسيس المراكز الصحيّة الحديثة على الطراز الأوروبي، استُخدم الاسم "خسته خانه"¹. الاسم المستخدم في البلاد العربيّة اليوم هو: المستشفى، أو المشفى.

القرون الإسلامية الأولى. ورد في سيرة ابن هشام (مج 3، ص 239)، وصفٌ لكيفيّة إنشاء أول مركَز علاج، لدواة جرحي غزوة الخندق؛ فقد أقامت سيدة تُدعى رُفيدة الأنصارية، في مسجد الرسول خيمةً لدواة الجرحي، عولجَ فيها بأمرٍ من الرسول سعدُ بن معاذ. يرى المقرizi (مج 2، ص 405)، أنَّ إنشاء أول بیمارستان في العالم الإسلاميّ، من

¹ - Hastahane.

إنجازات الوليد بن عبد الملك الأموي في العام 88هـ، ويقول، إنَّه عَيْنَ أطْبَاءَ أَجْرَى لَهُمْ أَرْزَاقًا دائمة، وأصدر أمراً بفصل المذومين، ومنعهم من التجول بين الناس. يقول ابن دُقَمَقُ أيضًا (مج 1، ص 99) إنَّ مَنْزَلَ أَبِي زَيْدٍ فِي مَحْلَةِ سُوقِ الْقَنَادِيلِ فِي فُسْطَاطِ مَصْرُ قدْ حُوَلَ في العصر الأموي إلى بيمارستان.

أولى المراحل المضيئة في تاريخ المستشفيات بعد الإسلام، كانت في عهد الخلفاء العباسيين. ففي العام 148هـ مرض المنصور فاستدعي جورجيس بن جبرائيل بن بختيشوع [رئيس بيمارستان جنديسابور، ← بختيشوع*] من جنديسابور إلى بغداد. بعد ذلك ساهم أطْبَاءُ جنديسابور مساهِمَةً لا يستهان بها في تقديم الطِّبِّ الإِسْلَامِيِّ وإنشاء البيمارستانات (← تتمة المقالة، قسم إيران). طلب هارون الرشيد (حك: 170-194هـ) إلى جبرائيل بن بختيشوع بن جورجيوس أنْ ينشئ بجانب الكَرْخ بيمارستانًا شبيهًا بجنديسابور. ثمَّ استقدم أبا يوحنَّا ماسوبيه من جنديسابور، وعيَّنه رئيسًا له، وقد ترأَّسه من بعد ابنه يوحنَّا بن ماسوبيه (ابن أبي أصيبيعة، ص 242-243، 246 وما بعدها). بني البرامكة أيضًا في بغداد بيمارستانًا باسمِهم، أو كلوا رئاسته إلى طبيب هندي اسمُه ابن دهْن، وطلبوه إلى أنْ يُترجمَ المؤلفات الطِّبِّية السنسكريتية بالعربية (ابن النديم، ص 305).

لا نعلم إلى أيِّ زَمْنٍ ظَلَّ الْعَمَلُ جَارِيًّا في بيمارستان هارون الرشيد، لكنَّ مَا لا شَكَّ فِيهِ أَنَّهُ ظَلَّ الْمَثَالُ الْمُخْتَذَلُ بِهِ فِي تَأْسِيسِ البيمارستانِ الْأَخْرَى.

في العام 247هـ، أنشأ الفتح بن خاقان وزير الخليفة المُتَوَكِّلُ، التُّرْكِيُّ بيمارستانًا في معافير الفسطاط (المقريزي، مج 2، ص 406)، وفي العام 302هـ أنشأ على بن عيسى بن الجراح (ابن الجراح) بيمارستانًا في حربيَّة بغداد. بعد ذلك تزايد عدد البيمارستانات المستحدثة في بغداد، وغيرها من النواحي، بحيث بات القرن الرابع الهجري يُعدَّ مرحلة ازدهار الطِّبِّ الإسلامي، وإنشاء البيمارستانات. في ذلك العصر، أو كل على بن عيسى إلى الطبيب المشهور أبي عثمان سعيد بن يعقوب الدمشقي، فضلاً عن إدارة بيمارستانات بغداد، إدارة بيمارستانات مكَّة والمدينة (ابن أبي أصيبيعة، ص 316). قبل ذلك في عصر الخليفة المعتصم (279-290هـ) بني أمير أمرائه بَدْرُ الْمُعْتَضِدِيُّ بيمارستانًا في الصَّاحِيَّة الشَّرْقِيَّة لبغداد (م. ن، ص 301). في أوَّلِ الْحَرَمِ من العَامِ 306هـ، افتُتِحَ بيمارستانُ السَّيِّدَةِ، الَّذِي بُنِيَ بِاسْمِ أَمِّ مُحَمَّدِ الدُّولَةِ الْبُويهِيِّ فِي بَغْدَادٍ، عَلَى يَدِ الطَّبِيبِ المشهورِ سَنَانِ بْنِ ثَابَتٍ. بَلَغَتِ النَّفَقَاتِ الشَّهْرِيَّةُ لِهَذَا البيمارستان ستمائة دينار (الْقِفْطِيُّ، ص 195؛ ابن أبي أصيبيعة، ص 302). في العَامِ 306هـ،

بن الخليفة المقتدر بالله، بناءً على نصيحة سنان بن ثابت، في محلّة باب الشام في بغداد "البيمارستان المقتدرىّ" ، وخصص له ميزانية شهرية قدرها مائتي دينار (القِفْطِيّ، ص 194-195؛ ابن أبي أصيّعَة، م. ن، ص. ن). أنشأ ابن الفرات أحد وزراء الخليفة العُبَّاسيِّ المقتدر بالله، ذوي النفوذ، بِيَمَارِسْتَانًا في ناحية دَرْبِ الْمُفَضَّل في شرقِيِّ بَغْدَاد، أو كُلَّ خَلْفِهِ الْخَاقَانِيِّ رئاسته في العام 313هـ إلى الطبيب سنان بن ثابت (ابن أبي أصيّعَة، ص 304-305). شيد أبو الحسن بَجْكَمْ * أيضًا في العام 330هـ، على الضِفَّةِ الْغَرِبِيَّةِ لِنَهْرِ دَحْلَةِ، عَلَى قَمَّةِ تَلٌّ صَغِيرٌ يَرْبُضُ فَوْقَهَا قَصْرُ هَارُونَ الرَّشِيدِ، بِيَمَارِسْتَانًا بِاسْمِهِ، بناءً على نصيحة سنان بن ثابت الطبيب (القِفْطِيّ، ص 193؛ ابن أبي أصيّعَة، ص 304).

في ذلك الحين كان في واسط، والرّقة، وميافارقين، وحران، وأنطاكية، ونصيبين، وإيران ← تتمّة المقالة، قسم إيران) أعدادٌ من البيمارستانات (ترزي أوغلو، 1968م، ص 42-52؛ أحمد عيسى، ص 198، 201، 202-204، 266-269). في تلك المرحلة، بناءً على اقتراح سنان بن ثابت، وأوامر عليّ بن عيسى، كان أطباء يزورون السجون يوميًّا، ويعاينون المرضى، ويجيرون لهم تناول بعض أنواع الأدوية (ابن أبي أصيّعَة، ص 301). كان يُرسَلُ كذلك، بأمرٍ منه، بِيَمَارِسْتَانٌ سِيَارٌ إلى قرى جنوبِيِّ العَرَاقِ، وكان الأطباء المرافقون يعاينون المسلمين وغير المسلمين أيضًا، ويعالجونهم (القِفْطِيّ، ابن أبي أصيّعَة، م. ن، صص. ن).

في تلك المرحلة، بالإضافة إلى البيمارستانات الكاملة التجهيز، كانت توجد بِيَمَارِسْتَانات أيضًا لها سِماتُ الْخَانِقَاهَاتِ [الْتَّكَایَا الدَّرْوِيشِيَّةِ]، مُخَصَّصةً لِمَعَالِجَةِ المَرْضِيِّ النَّفْسِيِّينِ؛ وقد ذُكِرَ الْمُبَرَّدُ الأَدِيبُ الْمُشْهُورُ الْمُعاَصِرُ لِلْمُتَوَكِّلِ، مُؤَسَّسَةً من هَذَا النَّوْعِ في دِيرِ حِزْقِيلِ بَيْنِ بَغْدَادِ وَوَاسْطِ. يَتَّضَعُّ من خَلَالِ الْمَعْلُومَاتِ الْمُسْتَفِيَّةِ الَّتِي قَدَّمَهَا مُؤَلَّفُو الْقَرْنَيْنِ الْثَالِثِ وَالْرَابِعِ الْهَجْرِيَّيْنِ (الْيَعْقُوبِيُّ، ص 321؛ الْمَسْعُودِيُّ، مَجْ 4، ص 89) عَنْ هَذَا الْبِيَمَارِسْتَانِ، أَتَّهُ أَقْدَمَ بِيَمَارِسْتَانَ نَفْسِيًّا، وَأَرْقَى مِنْ "بِيَمَارِسْتَانَ فَالْنَسِيَا¹ بِلَنْسِيَّةِ الْعَامِ" في الْأَنْدَلُسِ (أَسَّسَ فِي الْعَامِ 812هـ/1409م)، وَمُسْتَشْفِي بَتْلَهَمَ² [= بَيْتُ لَهْمٍ] فِي لَنْدَنِ (أَسَّسَ سَنَةَ 807هـ/1404م) (ترزي أوغلو، 1968م، ص 42).

أَفْضَلُ أَنْوَاجِ لِلْبِيَمَارِسْتَانَاتِ الَّتِي كَانَتْ تَتَمَّ فِيهَا مَعَالِجَةُ الْأَمْرَاضِ الْجَسَدِيَّةِ وَالنَّفْسِيَّةِ، فِي الْقَرْنِ الْثَالِثِ الْهَجْرِيِّ، بِيَمَارِسْتَانَ أَحْمَدَ بْنَ طَوْلُونَ فِي الْفَسْطَاطِ، الَّذِي كَانَ قَدْ شُيِّدَ إِلَى جَانِبِ مَسْجِدِ ابْنِ طَوْلُونَ الْجَامِعِ. يَقُولُ الْمَقْرِيزِيُّ (مَجْ 2، ص 405-406)، كَانَ يُفْرَضُ عَلَى الْمَرْضِيِّ فِي ذَلِكَ الْبِيَمَارِسْتَانِ أَنْ يَرْتَدُوا

¹ - Hospital general Valencia.

² - Bethlehem.

شيئاً خاصّةً؛ بعد ذلك تتمّ معالجتهم، ويؤمّن لهم الدواء والطعام. كان هذا البيمارستان الذي أنفق على إنشائه وتجهيزه ستون ألف دينار، يستقبل فضلاً عن العبيد والجنود، الناس من مختلف الطبقات، الأغنياء والفقراء على حدّ سواء. وكلّ يوم جمعة كان ابن طولون يتقدّم البيمارستان، ويطلّع على سير الأمور فيه. لهذا البيمارستان أهميّة كبيرة في تاريخ الطب والطب النفسي. أسس أيضاً كافور رابع الأمراء الإخشيديين، في العام 346هـ في الفسطاط بيمارستانًا باسم الأسفل (م. ن، ص. ن). لكنَّ أهمَّ بيمارستانات العالم الإسلامي في القرن الرابع الهجري، كان البيمارستان العضدي*. لم يبقَ اليوم أيَّ أثر يدلُّ عليه، علماً أنه ظلَّ يُعمل حتَّى العام 656هـ. كذلك لم يبقَ أيَّ أثر للبيمارستانات الأخرى في العالم الإسلامي العائدة إلى ما قبل عصر السلجمقة. حتَّى أنَّ كتبًا مثل صفات البيمارستان للرازي، وكتاب البيمارستانات تأليف زاهد العلماء الفارقي (الطبيب في بيمارستان ميافارقين في القرن الخامس الهجري) قد فُقدت أيضًا، (← القسطنطيني، ص 272؛ ابن أبي أصيبيعة، ص 341، 414-415).



د. أ. د. التركية، مادة "Bîmâristan"

خريطه منشأة طبية في بغداد في العصر العباسى، من القرن الثاني

حتى الرابع الهجريين (أعاد رسماًها ترزي أوغلو نقلًا عن خريطة لسترنج)

الجهة اليميني صورة:

موقع البيمارستان والمدارس في العصر السلجوقي في شرقي بغداد.

شمال غربيّ أفريقيا والأندلس. ما من بيمارستان من تلك التي بُنيت في المغرب والأندلس، بقي مُحافظاً في الوقت الراهن على شكله القديم. البيمارستان الأقدم في تونس، كان قد بُنيَ في محلّة دِمنة في القبروان بأمرِ الأمير الأَغْلَبِيّ (حك: 202-224هـ). كان يضمّ غرفاً للمرضى، وغرفَ انتظار للزُّوّار، ومسجدًا صغيراً، وغرفة دراسة، وكان الأطباء يعالجون المرضى بمساعدة مُمرضات سودانيات (حسن عبد الوهاب، ص 907، 916؛ الحمارنة¹، ص 375). كما ذكر الرَّرَكَشِيّ (ص 102)، أنَّ أوّل من بني بيمارستانًا [في مدينة تونس] هو أبو الفوارس، من الأمراء الحَفَصِيَّين، تمَّ إنجاز البناء في العام 823هـ.

الخبر الوحيد عن أوّل بيمارستان كبير في فاس، مفاده أنَّ بانيه هو الأمير الموحدي أبو يوسف يعقوب (المنصور بالله، حك: 580-596هـ). كان هذا الأمير يولي بناء هذا البيمارستان الكثير من الأهميّة، فدعا إلى بلاطه كبار أطباء عصره، من بينهم ابن طُفِيل، وابن رشد، وابن زُهر الحفيد، وابنه، عبد الله بن الحميد، وشَيْدَ [بعد استشارَتْهُم] للمسلمين بيمارستانًا كبيراً. هذا البيمارستان كان مبنيًّا فخماً، كما وصفه عبد الواحد المراكشيّ (ص 209)، أقام هذا الحاكم أيضًا في منطقة حكمه بيمارستانات للمجانين، والمحذومين، والعميان. لقد بذل السلاطين المرينيون الكبار، أبو يوسف يعقوب، وأبو الحسن المرينييّ وأبو عنان المرينيّ، جهودًا كبيرة للمحافظة على هذه المنشآت، كما شيدوا هم أيضًا بيمارستانات جديدة. يقول ابن بطوطة (703-779هـ) عن معاصره أبي عنان المرينيّ (حك: 750-760هـ)، أنَّه بني في كلّ مدينة من مملكته بيمارستانًا، خصّص له أوّقافًا كثيرةً لتأمين نفقات الأطباء والأدوية (ص 43، 663). بعد ذلك حين تولّى الحكم أمراء كانوا يضعون أيديهم على تلك الأوقاف، ويستولون عليها، آلت شمس تلك المستشفيات إلى الأفول. فالبيمارستان المعروف العائد إلى عصر الموحدين في مراكش، زال من الوجود، ولم يبقَ أيُّ أثر له، وكذلك البيمارستان الآخر الذي أقامه الأمير سعدي أبو محمد، عبد الله الغالب بن محمد المهديّ (حك: 965-982هـ)، في المكان نفسه، عُطّل، وحُوّل إلى سجن للنساء (سلامي، مج 5، ص 39). يقول ليون الأفريقيّ²، أنَّه شاهد في مدينة فاس في أوائل القرن العاشر الهجريّ/السادس عشر الميلاديّ، بيمارستانًا مهدمًا كليًّا، كان قد حُوّل من قبل إلى موضع لحجر الجانين الخطرين (مج 2، ص 78). بني المولى (عبد الرحمن بن هشام) السلطان العلويّ، في العام 1247هـ، بيمارستانًا في سَلا، إلى جانب مقبرة سيدى بن عاشر، ظلَّ يُعمل إلى زمان قريب، لكنَّ مرضاه

¹ - Hamarneh

² - Léo Africanus.

كانوا لا يعتمدون على الأطباء، بل يتظرون الشفاء من العارف الواصل صاحب ذلك المزار. في فاس كان مرضى الجذام بشكل عام، يُحجر عليهم في معازل خاصة، في ضواحي المدينة. هؤلاء المرضى الذين كانوا يُجتمعون في باب الْهَمُومَة، على رأس الطريق من فاس إلى تلمسان، نُقلوا في النصف الأول من القرن السابع الهجري إلى المغاور الواقعة في ضواحي باب الشريعة.

في الأندلس، بُنيت، لعزل مرضى الجذام، بيمارستانات خاصة خارج المدينة، من بينها قصر مُنْيَة العَجَب، بجانب الوادي الكبير¹، في ضواحي قرطبة (ليفي بروفنسال، مج 3، ص 434).

كان في قرطبة، بناءً على ما ذكره الْمَقْرِي، في الحقبة الإسلامية، خمسون بيمارستانًا عاملًا: حَوْل الإِسْبَان [بعد سقوط غرناطة]، البيمارستان الذي كان الأمير محمد الخامس، من بنى نصر، قد بناه في غرناطة في العام 777هـ، إلى دار للضرب. وقد هُدم هذا المبني في العام 1260هـ؛ لكنَّ المهندس المعماري الفرنسي غيهابو²، استخلص خريطةً له، يظهر فيها المستشفى مبنيًّا من طبقتين حول باحة داخلية مخاطة بآوازين ذات أعمدة، شديد الشبه بالبيمارستان الذي بُني في العام 673هـ في تونقاد بأمرِ من معين الدين بروانه^{*}، ولا يزال قائماً (كمتحف) (ترزي أوغلو، 1968م، ص 58-62، غيهابو، مج 6، ص 414). على أساس لوحة الكتابة الحجرية لهذا المستشفى، المحفوظة في متحف غرانادا (غرناطة)، كانت تُعالج في هذا المستشفى مختلف أنواع الأمراض، ومبناه رائع ولا مثيل له جماليًا. في هذا الادعاء على ما يبدو شيًّء من المبالغة، فمثل هذه المباني كانت موجودة بكثرة في جميع أنحاء الأندلس، لا سيما في غرناطة (جنوب إسبانيا). في الخريطة التي أعدّها كونل³ لغرناطة في عهد "بني نصر"**، اعتماداً على المصادر القديمة، سُمِّيت البوابة الغربية لحصن المدينة الأقرب من البوابات الأخرى إلى مسجد المدينة، "باب المارستان"، وهذا دليلٌ على أنَّه كان يوجد في تلك الناحية، فضلاً عن البيمارستان الذي شيدَه محمد الخامس بالقرب من قصر الحمراء، بيمارستان آخر (ترزي أوغلو، 1968م، ص 57-58).

بعد العصر الإسلامي في الأندلس، ظلَّ المعماريون المسلمين يبنون البيمارستانات للأمراء والأميرات، حتى للرهبان، بالقرب من مقر إقامتهم، كبيمارستان لاتينا⁴ في مديريه،

¹ - Guadalquivir

² - Geailhabaud

³ - E Kühnel

⁴ - Hospital de Latina

وتصميمه وبنائه كما يُصرح نصّ وقفيته مهندس معماريٌّ مسلم اسمه حسن (خوان¹، ص 241). لا يزال الباب الرئيسيٌّ لهذا البيمارستان، قائماً حتى الآن، وهو أنموذج من تراوُج فنِ العمارة الإسلامية والأوروبية.

في المناطق السلجوقية. [نظرًا لاتساع مساحة المناطق التي كان يحكمها السلاجقة، وطول المدّة التي استغرقها حكمهم، ولكثره البيمارستانات التي أنشئت في عصرهم في مختلف أرجاء العالم الإسلاميّ، جرت دراسة هذه المرحلة وتقويمها على نحوٍ مستقلٍّ].

إنَّ دراسة الآثار العائدة إلى العصر السلجوقىّ، ومن ضمنها بيمارستان نور الدين في الشام (446هـ)، ودار الشفاء جوهربنوب، ودار الشفاء غياث الدين كيخسرو في قيصرية (602هـ)، ودار الشفاء كيكاووس في سيواس (614هـ)، وبيمارستان توران ملِك، ابنة هرام شاه، في ديفريغى² (625هـ)، ودار الشفاء بروانه بيك، المعروف باسم غوك مدرسه [= المدرسة اللازوردية] في تقاد (674هـ)، ومستشفى أتابك فرَّخ في كنْغري (تشانغري؛ 632هـ)، ومستشفى عليّ بن بروانه في قسطموني (670هـ)، تدلُّ كلُّها على أنَّ المخطَّط المصلَّب للمباني ذات الأوابين الأربع والأربعة المزخرفة بتأثير من التقويم التركيّ بالرسوم النافرة للحيوانات والقمر والشمس، يبدو أنَّها كانت مستلهمةً من تركستان، موطنهم السابق في آسيا، وكانت لها مساهمتها في العصر القوطيّ في أوروبا. نظرًا إلى أنَّ بيمارستانات العصر السلجوقىّ كانت تعمل في أثناء الحروب الصليبية، فإنَّ لها أهميَّة كبيرةً في تاريخ بيمارستانات العالم. ظلَّت دور العجزة، ودور الجذام في الأناضول تعمل حتى العصر العثمانيّ، من ضمنها تكية قراجة أحمَد في ضواحي مدينة أفيون، ومقبرة ملَك دده في ناحية أنجاق بالقرب من بورُدور. ورد في مدونة رحلة كلاوينخو³، السفير الذي بعثه ملك إسبانيا إلى تيمور، في أوائل القرن التاسع الهجريّ/الخامس عشر الميلاديّ، أنَّ في قرية بجوار أرضروم، المسماة اليوم دلي بابا، تكيةً تعود إلى العصر السلجوقىّ، كان المرضى النفسيون فيها يُعالجون بالإيحاء. على باب هذا البيمارستان يُشاهد رسم شرابة وسمكة (ص 79). صورتا القمر والشمس المنحوتان في "داري الشفاء" السلجوقيين في قيصرية وسيواس، يؤكّد كلام كلاوينخو. يتبيَّن من خلال أبحاث نافذ أوزلوق في السجلات الشرعية في قونية، أنَّ الجنوبيين كانوا في هذه المدينة يُعزلون عن سائر المرضى، ومن ثمَّ يأتي طبيان من بيمارستان علاء الدين لمعاينتهم، وينقلون إلى تكية خنازيريان (ترزي أوغلو، 1978م، ص 1). تدلُّ ملفات مركز توثيق رئاسة الحكومة التركية على وجود

¹ - Juan

² - Divriği

³ - Clavijo

مؤسسات من هذا النوع في عصر السلاجقة، في كلّ من قيصرية وسيواس وقسطموني وتوقاد (م. ن، ص 2). شُيدَ في الأناضول، فضلاً عن البيمارستانات، حمامات بجذاء ينابيع المياه المعدنية، لمداواة المرضى. يمكننا تقسيم بيمارستانات عصر سلاجقة الأناضول إلى أربع مجموعات: 1) البيمارستانات السيّارة. فقد كان في جيش ملكشاه السلاجقيّ (حك: 465-485هـ) بيمارستان سيّار، يضمّ مائة جمل تحمل المرضى والأطباء والأدوات والتجهيزات الطبية (أونفر¹، ص 11). كان أبو الحكم الباهليّ الأندلسّيّ/المغربيّ (المتوفّى سنة 550هـ) طبيب المستشفى السيّار التابع لعسكر محمود (حك: 512-526هـ)، ملك العراق السلاجقيّ (القِفطِيّ، ص 405؛ ابن خلّكان، مج 3، ص 123-124). كان أربعون جملًا ينقلون هذا المستشفى من مكان إلى مكان آخر. فضلاً عن ذلك، كان عزيز الدين أبو نصر أحمد بن حامد، قد أنشأ في معسكر محمود بيمارستانًا يحمل أطباؤه وتجهيزاته على ظهور مائتي جمل (البُنْدَارِيّ، ص 158). أبقى ماليك مصر على هذا التقليد الذي استنّه السلاجقة (المقرiziّي، مج 2، ص 200؛ أحمد عيسى، ص 14-15). 2) بيمارستانات محطّات القوافل. بناء على ما دونه القلقشنديّ (مج 14، ص 152-157)، وابن فضل الله العُمرّي (ص 10-14)، كان في الرباطات ومحطّات القوافل في ديار السلاجقة، لا سيّما في الأناضول، بيمارستانات شعّالة. تؤيد ما صرّح به هذان المؤرّخان، شروط إجارة وصف الأدوية والأشربة الواردة في نصّ وقفيّة خان [= رباط] قرهتاي الواقع في ضاحية مدينة قيصرية (← توران، ص 58). 3) البيمارستانات السلطانية. كانت نماذج من هذه البيمارستانات موجودة في مصر وإيران. فقد أقام صلاح الدين الأيوبّيّ، بعد أن احتلَّ القاهرة (657هـ)، مستشفى في جناح من قصر الفاطميين في المدينة (أحمد عيسى، ص 76-77، البدليسيّ، ص 98). وصلت عادة إنشاء بيمارستانات البلاطات في الديار العثمانية، وفي العصر المغوليّ، حتى الصين. 4) البيمارستانات العامّة. الأنوجج الأول من هذه البيمارستانات في مصر شُيدَ نظام الملك (← تتمّة المقالة، قسم إيران). من هذا النوع بيمارستان تُوش، باسم الملك تُوش، ابن ألب ارسلان، الواقع مع المدرسة التُوشية على الضيّقة الشرقية لنهر دجلة (شترك²، مج 1، ص 142؛ زاره- هرتسفلد³، مج 2، ص 161). الأنوجج الأكثر شهرةً من هذا النوع من البيمارستانات، هو البيمارستان العضديّ. كانت الطبابة في هذه البيمارستانات تترافق وتعليمَ الطبّ.

¹ - Ünver

² - Streck

³ - Sarre- Herzfeld

كان البيمارستان الذي أنشأه نور الدين زنكي في العام 549هـ باسمه في الشام، والذي اشتهر باسم البيمارستان الأعظم، يُحسب مركزاً طيباً فائق الأهمية. أمن نور الدين نفقات بنائه وتجهيزه من فدية ملك الفربنجة الذي أُسر في أثناء الحروب الصليبية. قال ابن جُبير الذي رأه بعد ثلاثين سنة من تأسيسه: "يُوجَد هنا بِيَمَارِسَتَانَ وَاحِدَ قَدِيمٍ وَالآخِرُ حَدِيدٌ؛ فِي الْجَدِيدِ أَيْ بِيَمَارِسَتَانَ نُورُ الدِّينِ، يُشَرِّعُ الْأَطْبَاءَ مِنْذَ السَّاعَاتِ الْأُولَى بِعِيَانِيَةِ الْمَرْضِيِّ، وَيُصَفِّونَ لَهُمُ الْأَدْوَيَةَ الْلَّازِمَةَ وَالْأَطْعَمَةَ الْمَسْمُوحَ تَنَاوِلُهَا" (ص 255-256). يُرجح أن يكون البيمارستان القديم الذي أورد ابن جُبير اسمه، هو البيمارستان الذي أنشأه دُقاق بن تُوش السُّلْجُوقِيُّ (المتوفى سنة 498هـ) في باب البريد في الشام، لأنَّ ابن عساكر (المتوفى سنة 572هـ)، تحدَّث عن بِيَمَارِسَتَانَ دُقَاقَ بْنَ تُوشَ (إليسييف¹، ص 267). بِيَمَارِسَتَانَ نُورُ الدِّينِ عَلَى نُطْرِ مَنَازِلِ أَتْرَاكِ آسِيا الْوَسْطَى وَالْمَدَارِسِ السُّلْجُوقِيَّةِ بِنَاءً ذَوَ أَرْبَعَةِ أَوْأَوْيَنِ عَلَى شَكْلِ صَلِيبٍ ذِي مُحَوَّرَيْنَ حَوْلَ بَاحَةِ دَاخِلِيَّةٍ، وَهُوَ أَقْدَمُ مُسْتَشْفَى سُلْجُوقِيٍّ حَفِظَ عَلَى شَكْلِهِ الْأَصْلِيِّ حَتَّى الْيَوْمِ، كَمَا أَنَّهُ الْمُؤَسَّسَةُ الْوَحِيدَةُ الَّتِي قَدَّمَ أَبِي أَصْبَعَةَ فِي طَبَقَاتِ الْأَطْبَاءِ مَعْلَوْمَاتَ وَافِيَّةَ حَوْلِ تَعْلِيمَاهَا الطَّبِيَّةِ؛ لَأَنَّ طَبِيبَ الْعَيُونِ هَذَا، وَمَؤْرِخَ عِلْمِ الْطَّبِّ، الْمَشْهُورُ، كَانَ هُوَ نَفْسُهُ قَدْ دَرَسَ وَتَدَرَّبَ فِي هَذِهِ الْمَدْرَسَةِ فِي الْقَرْنِ السَّابِعِ الْهِجْرِيِّ. فَقَدْ فَصَّلَ الْحَدِيثُ عَنِ أَبِي الْجَدِّ بْنِ أَبِي الْحَكْمِ، الَّذِي عَيَّنَهُ نُورُ الدِّينِ زنكي، رَئِيسَ الْأَطْبَاءِ الْمُسْتَشْفَى، وَيَقُولُ عَنْهُ إِنَّهُ كَانَ يَمَارِسُ الْطَّبَابَةَ، وَيَعْلَمُ الْطَّبَّ فِي الْوَقْتِ نَفْسِهِ (ص 628).

- 1- الباحة ذات الأعمدة.
- 2- الإيوان الخاص بالمرضى الرجال.
- 3- غرفة المريضات.
- 4- غرفة المرضى الرجال في طور النقاوة.
- 5- غرفة المريضات في طور النقاوة.
- 6- مقرّ المرضى.
- 7- المطبخ والغرف الملحقة به.
- 8- المكان الذي توضع فيه التوابيت.
- 9- غرفة الغسيل.
- 10- مخزن التدفئة.
- 11- غرفة رئيس المستشفى.
- 12- غرفة الجراحين.

¹ - Elisséeff.

13- غرفة أطباء العيون.

14- مكان قراءة صلاة الميت (المصلّى).

15- الباحة ذات الأعمدة.

16- غرفة المرضى النفسيين من الرجال.

17- غرفة المريضات مرضًا نفسياً.

18- أحواض المياه.

د. أ. التركية، مقالة "Bimâristan"

خريطة أرضية بيمارستان قلادون في القاهرة.

في البيمارستان الذي كان المنصور قلادون قد أقامه في القاهرة في العام 683هـ، كان الطب يُعلم نظرياً وعملياً، كما كان الحال في بيمارستان نور الدين، وملوّم أنه كان يضمّ مكتبة كبيرة، حُفظت فيها الكتب المهدأة من ابن النفيس. أعاد قلادون بناء هذا البيمارستان بعد إجراء تعديلات على أحد القصور الفاطمية المسمى القطبية، والذي كان عدد ساكنيه ثمانية آلاً نسمة، على شكل مبني ذي أربعة أواوين، ثم جعله مجموعةً بعد أن أضاف إليه ملحقات منها مدرسة الطب، والمقدمة الخاصة (المقريزي، مج 2، ص 406-408؛ هرتس¹، ص 1-43). استخرج المهندس المعماري الفرنسي، باسكال كوست²، مخطط هذا البيمارستان في العام 1232-1241هـ/1817-1826م. هذا المبني مؤلف - على أساس هذا المخطط - من أربعة أواوين، ونقطة تقاطعها المركزية مقببة السقف (أولياء شلي، مج 10، رقم 452، الورقة 45؛ ترزي أوغلو، 1968، ص 91-97). في هذا البيمارستان المشهور أيضاً باسم البيمارستان المنصوري، كانت يتم علاج مختلف أنواع المرض، حتى المجانين؛ وكان عدد كبير من الأطباء يقومون بتدريس طلبة الطب. كان هذا الموضع، على حد علمنا، في القرن الحادى عشر أيضاً، أهم بيمارستان في العالم الإسلامي، ومركزًا طبيًا (أحمد عيسى، ص 44-48).

المؤسسة المهمة الأخرى العائدة إلى العصر السلجوقي، مجموعة مركبة من مدرسة الطب - المستشفى، كان غيث الدين كيخسرو السلجوقي وأخوه جوهر نسب، قد بناهما في قيصرية متحاذين (غابريل، مج 1، ص 90). حافظ هذا المركز الطبي حتى اليوم على وضعه

¹ - Herz

² - Coste

القديم، ويُستخلص من شعر سلطان ولد حول قيصرية، احتمال أن يكون الحكيم والمنجم المعروف، قطب الدين الشيرازي، قد عمل فيه لمدة من الزمن (أوزلوق، ص 5).

أبدي الطبيب المعروف، عبد اللطيف البغدادي (المتوفى سنة 629هـ)، حين كان في أرزنجان في خدمة علاء الدين داود بن بهرام شاه بين منغولجك، رأيه بال "شفاخانة" [دار الشفاء]، التي كانت توران ملك، ابنة الملك، قد شيدته باسمها، ولا يزال قائماً حتى الآن.

في العام 709هـ، في عهد السلجوقية الروم في آماسية، شيد مستشفى، خدم فيه، بعد ذلك صابونجي أوغلي شرف الدين، طبيباً وأستاذًا لمدة أربع عشرة سنة (ترزي أوغلو، 1991م، ص 32-28؛ ألغود 1970م، الصفحات العاشرة- الثانية عشرة).

معمارياً، العناصر المشتركة بين بيمارستان نور الدين في الشام (بني في العام 549هـ)، ومستشفى كيمريان، ودار الشفاء المسمى باسم جوهرنسب في مدينة قيصرية، ومدرسة الطب المسمى باسم غياث الدين كيخسرو - التي حافظت كلها على شكلها الأصلي - هي: المبنى المصلب ذو المخورين المحيطين بباحة داخلية ذات أربعة أو اثنين.

بحث أندرية غودار عن منشأ المدارس والمساجد ومحطات القوافل ذات الأواوين الأربعة، في مبني ذي أواوين أربعة في مدينة باميان في خراسان (يعود تاريخ بنائه إلى القرن الخامس الهجريّ)، كان على ما يبدو قصر تر كان خاتون (المتوفاة سنة 487هـ) (الصفحتان الخامسة عشرة والسادسة عشرة، والصفحات 1-9). عُثر كذلك في الحفريات في آسيا الوسطى على منازل مبناتها مصلب تتوسطه باحة مسقوفة بقبة. يجب عدّ هذا النوع من المنازل منشأ المدارس والمستشفيات ذات الأواوين الأربعة، والباحة المركزية المقببة السقف (بوغاتشنكوفا¹، ص 142-158)، مثل البيمارستان الذي بناه نور الدين زنكي في الشام في العام 549هـ، ولا يزال قائماً حتى الآن، ودار الشفاء الذي بنته توران ملك في ديركى (سنة 626هـ)، وبشكل خاص بيمارستان قلاوون في القاهرة (أنشي سنة 682هـ)، و "اوسباله ماغيوره"² [مستشفى ماغيوره] في ميلان (بداية التشييد: 1457هـ/862م؛ ترزي أوغلو، 1976م، مج 2، ص 873-879).

لقد تركت البيمارستانات السلجوقية تأثيراً في البيمارستانات الأوروبيّة في عصر النهضة، من حيث الشكل الظاهريّ، ومن حيث الهندسة المعماريّة، والزخارف الداخلية على حد سواء؛ مثلاً مستشفى سان بليز³ على الحدود الإسبانية- الفرنسية له قبة يمكن عدّها مقتبسة

¹ - Pugachenkova

² - Ospedale Maggiore

³ - Hospital Saint- Blaise

من قبة "دار الشفاء" توران مَلَك. كان شعار بيمارستان نور الدين زنكي، صورة زهرة زنبق، وهي نفسها شعار بيمارستان قلاوون. واستُخدمت في زخرفة غرف المستشفى ذي الطبقتين في مدينة رودس، الذي بناه فرسان الهيكل الصليبيون في العام 844-1440هـ/895-1489م. يُشاهد هذا الشعار أيضًا في بلاطات الملوك الفرنسيين. بالإضافة إلى ذلك، يدل شَبَه خريطة مستشفى فرسان رودس بـ "دار الشفاء" السلاجوقية ذات الطبقتين في تقاد، على الأهمية الثقافية والتاريخية للبيمارستانات السلاجوقية (ترزي أوغلو، 1975م، ص 828-829).

لم يبق تأثير البيمارستانات السلاجوقية مقتصرًا على البلدان الأوروبية، وإنما تَمَدَّد إلى مناطق أخرى أيضًا، من الشرق الأدنى حتى الشرق الأقصى؛ وقد ساهم المغول في العصر الإيلخاني في هذا التمدد، بتشييدهم بيمارستانات في عدد كبير من المدن، منها آماسيه وسيواس، وتب里ز، وهمدان، وسلطانية، وشيراز، وبغداد، على نمط البيمارستانات السلاجوقية. بني تيمور في سمرقند قصرًا وبيمارستانًا، حُوّل في ما بعد إلى مركز علميٍّ- ثقافيٍّ، من الجدير عدّه بعد بيمارستان تغاج بغراخان، ثانٍي مركز صحي كبير في تلك المدينة (أغود، 1951م، ص 173). بني شاهرخ، ابن تيمور، كذلك مستشفىً في هراة. في عهد السلطان حسين بايقدرا (873-911هـ) بني الأمير عليشير النوائي، بمحاذاة قناة أنجل¹، مجموعة كبيرة تضم قصره الخاص، وحدائق فيها برك، ومدرسة طبية وبيمارستانًا (د. أ. التركية، مج 1، ص 352).

الهند والصين. كانت قد بُنيت في الهند قبل عهد البابريين بيمارستانات كبيرة، لم يبق منها أيّ أثر. فقد ذكر القلقشندى، أنَّ سبعين بيمارستانًا كانت قائمةً في عصر محمد بن تغلق (شبيس²، ص 29). ذكر محمد قاسم فرشته (مج 1، ص 151)، أنَّ السلطان فيروز أضاف إليها خمسة أبواب أخرى. كان يُعَيَّن للبيمارستانات أطباء متخصصون، من جراحين وأطباء عيون وغيرهم، ومُرّضون كذلك، ومراقبون للمرضى، وكانت الأدوية والأطعمة متوفّرة مجّانًا. كما أنَّ أبواب هذه المستشفيات كانت مفتوحة أمام جميع الطبقات من دون استثناء. وكان فيروز شاه، يأخذ أموالًا من القرى التي تتجاوز مداخيلها حدًّا معينًا، لتأمين نفقات المستشفيات. ورد الكلام مفصلاً في السيرة الفيروز شاهية (تأليفه سنة 772هـ) على الأدوية التي كانت تُستهلك في البيمارستانات وعلى تركيباتها. أسس السلاطين القطب شاهيّون، محمد على قطب

¹ - Incil

² - Spies

شاه (حك: 988-1004هـ) في حيدر آباد، والنَّوَّاب خيرانديش خان في أتاوه¹، بيمارستانات، وقد دوّن الطبيب خيرانديش خان كتاباً عن أطباء هذه المؤسسات اسمه قَيْرُوت التجاري (صديقي، ص 168-169).

في قصر فتحبور السيكري² بيمارستان كثير التجهيزات، لا يزال قائماً حتى الآن، كان مخصصاً، كما ذكر طبيه الإيطالي نيكولاو مانوتشي³، في القرن الحادى عشر المحرى³/السابع عشر الميلادى⁴، لداواة سيدات الحرير (بورغهام، 1938م ألف، ص 2185-2186). كان في هذا البيمارستان اثنتا عشرة غرفة للمرضى، وعدد كافٍ من المراحيل، وأحواض الاستحمام، والمغاسل. تُعطى سقوفه المزخرفة، التي لا تزال محافظة على جمالها، فكرةً وافيةً عن الزخارف الفخمة لهذا البيمارستان السلطاني⁵. لمنع أشعة الشمس من التسرب إلى غرف المرضى، بُنيت في مقابل الغرف أواوين مزجّحة ومسقوفة. لا تزال المباني الإدارية المخصصة للأطباء، وحمامات القصر كذلك، قائمةً حتى الآن. كان جهانغير، ابن أكبر، قد أصدر أمراً بإنشاء بيمارستانات في المدينة، لتطبيب الناس مجاناً. ولا تزال اطلال هذه البيمارستانات العمومية، موجودةً حتى الآن في أكره (م. ن، ص 2192).

ليس من السهل إثبات تأثير الطراز المعماري للبيمارستانات السلجوقية في بيمارستانات تيموري⁶ الهند؛ لكن، نظراً إلى أنَّ المغول قد أوصلوا العمارة السلجوقية إلى الصين، يمكن الإقرار بأنَّ هذا التأثير كان مشهوداً في الهند. في عصر قوبيلاي قآآن (658-693هـ)، أُنشئَ في الصين ثلاثة بيمارستانات على الطراز المعماري السلجوقي⁷، الذي كان سائداً في تركستان وإيران، أحدها في قصر قوبيلاي في سياندو (تشنغتشو)⁸، والآخر في تاتو⁹ (خانبالق/بكين). وكان هذان البيمارستانان موضوعان في الخدمة منذ العام 691هـ، بإشراف أطباء مسلمين. أما البيمارستان الثالث، فهو البيمارستان الملكي¹⁰ في بكين، الذي كان يُسمى كوانغ-هوي-شزه¹¹. فضلاً عن هذه البيمارستانات، كان الأطباء المسلمين، يعملون في الصيدليات الملكية الصينية.

العصر العثماني. تعود معظم البيمارستانات الإسلامية القديمة، إلى العصر العثماني¹². ففي المذكرات التي دوّنها البارون فرانسلاف فراتيسلاف¹³، عضو البعثة- النمساوية

¹ - Etawah

² - Niccolao Manucci.

³ - Ciandu (chengtu)

⁴ - Tatu

⁵ - Kuang-hui-Sze

⁶ - Wenceslaw Wratislaw

إلى إسطنبول في العام 999هـ/1591م، أنّ بيمارستانًا قد أُسس في مصنع قاسم باشا للسفن، لأفراد طاقم الأسطول العثمانيّ. ويُستخلص من سجلّ المحفوظات، أنّه بالإضافة إلى بيمارستان ساقِر آغا جي، وبيمارستان آينالي قوّاق التابعين لأسطول قاسم باشا البحريّ، كانت هنالك بيمارستانات للبحرية في كلّ من كريت والبصرة وبرفزة¹، وبيمارستانات لتطبيب العاملين في الأسطول في مصانع السفن في كلّ من غُمليك، وإزميت، وإينيق، وروسجُون، وتولجي، وفدين، وسودا (في كريت)، والسويس، والبصرة (ترزي أوغلو، 1988م، ص 53-61). كان العثمانيّون يستخدمون البيمارستانات القديمة، ملتزمين بالمقرّرات الواردة في وقفيّاتها. كذلك شيدوا بيمارستانات جديدة في كلّ من بورصة، وأدرنة، وإسطنبول، وسالونيك، وبغراد، وبودابست. ورد في مذكّرات الألمانيّ يوهانس شيلتبرغر²، الذي أسره الأتراك في معركة نيكبولي³، ودخل في خدمة السلطان بايزيد [إيلدرم بايزيد] (حك: 791-805هـ)، أنّه كان في بورصة، عاصمة الدولة العثمانيّة في ذلك الحين، ثمانية بيمارستانات، كان جميع المرضى يتلقّون العلاج فيها، من دون أيّ تميّز على أساس دينيّ أو عرقيّ (ص 94). لم يبقّ اليوم من البيمارستانات الشمانيّة سوى بقايا جدار ارتفاعه متّر واحد، من البيمارستان الذي كان الإيلدرم بايزيد قد شيده بين العامين 792 و 796هـ. أعاد المهندس المعماريّ التركيّ تشتين تاش، رسمَ خريطة المبني، بعد دراسة هذه البقايا (ص 38-40). بعد أنْ وقع الاختيار على أدرنة عاصمةً للدولة العثمانيّة، بنى السلطان مراد الثاني في هذه المدينة "دار الجذام"، وبيمارستانًا ملكيًّا باسم "حسّته لر إوده سى" [دار المرضى = المستشفى] (ترزي أوغلو، 1979م، ص 58). في العصر العثمانيّ، لا سيّما في إسطنبول، بُني العديد من البيمارستانات، أُولّها المسمّى "شفاخانة" [دار الشفاء]، وهو جزء من الجمّع الذي بناه السلطان محمد الفاتح في العام 875هـ.

من البيمارستانات العثمانيّة المهمّة: بيمارستان الخاصة في إسطنبول، مهندسه سِنان (البناء: 945-957هـ)، وهو لا يزال قائماً حتّى اليوم؛ الشفاخانة [دار الشفاء] ومدرسة المجموعة السليمانيّة (البناء: 957-964هـ)، وبيمارستان عتيق والده [بيمارستان الوالدة القديم] (البناء: 991-995هـ). كانت تتمّ في هذه البيمارستانات معالجة المرضى النفسيّين أيضًا. كان يعمل في دار الشفاء، كما تنصّ وقفيّة المجموعة السليمانيّة، رئيسًّا للأطباء، وطبيبان، وطبيباً عيون، وجراحان، وصيدلانيّان، ومساعداً صيدلانيّ، وعدد كبير من العمال، يتّقاضون

¹ - Prevezе

² - Johannes Schiltberger

³ - Niğbolu

يُومياً من ثلاثة إلى ثلاثة آقجه [= عملة فضية]. وردت المعلومات المتعلقة بوضع البيمارستان التابع للمدرسة الطبية، آونة الافتتاح، في كتاب طبقات المالك ودرجات المسالك، تأليف جلال زادة مصطفى شلبي (الورقة 414). استمر تدريس الطب في هذا البيمارستان حتى أوائل القرن الثالث عشر الهجري/التاسع عشر الميلادي، واستمر تطبيب المرضى فيه حتى القرن الرابع عشر الهجري/العشرين الميلادي (ترزي أوغلو، 1983-1984م، ص 28-33).

لم يبق حالياً من البيمارستانات القديمة خارج إسطنبول، سوى "دار الشفاء" بابيزيد الثاني (حك: 886-918هـ) في أدرنه (البناء: 889-893هـ)، ودار الشفاء السلطانية حفصة في مانيسا (معنيسا)؛ هذا الأخير افتتح في العام 946هـ، وهو من أوقاف السلطانية حفصة زوجة السلطان سليم الأول (حك: 918-926هـ). حُول هذا البيمارستان في الوقت الراهن إلى متحف صحي. كان يعمل في هذا المستشفى كما تنص وقفيته، رئيس للأطباء، وجراح، وطبيباً عيون، ومتخصص بالأمراض النفسية، وصيدلانيان، ومعاوناً صيدلانيّ، وممرضان، يعملان نهاراً وممرضان يعملان ليلاً، ومدير، وأمين سرّ، وقصار وطباخان. كان يحضر في هذا المستشفى سنوياً ترياق¹ اسمه "مسير معنيساً"، يوزّع على المرضى، وإذا وجد فائض يوزّع على الناس. كان في إسطنبول في ذلك الحين كما يُستخلص من مذكرة الصيدلاني رينولد لوبنون²، أحد مرافقي رودولف الثاني، ملك النمسا، في أثناء سفره إلى إسطنبول (995هـ/1587م)، 110 بيمارستانات (ص 168)، يتسع معظمها لعدد من 150 إلى 300 مريض. كان بعضها يستقبل المرضى على اختلاف أديانهم ومعتقداتهم، وبعضها كان مختصاً للمربيضات. في الصفحتين 30 و 31 من الباب الثاني عشر من كتاب أنطونيوس منافينوس³ الجنوبي - الذي نشره نيكولاوس هونيجر⁴ في العام 1573م/981هـ في بازل⁵، بعنوان <وصف الحافظة على قصور السلاطين العثمانيين والدولة العثمانية>⁶

يجري الحديث عن الـ "تيمارخانة" [دار الحانين]، الذي كان السلطان بابيزيد الثاني قد بنى في إسطنبول، وكان يعالج في أحد غرفه الكبيرة أربعين مريضاً نفسياً كلاً على حدة، وكان فيه 150 مريضاً. لكن من غير المؤكّد إنْ كان هذا المستشفى هو نفسه البيمارستان الذي بنى بابيزيد الثاني في إسطنبول، أو مبني آخر. تحدث ويلهلم ديليش⁷ أيضاً الذي زار إسطنبول في

¹ - mithridatikum

² - Reinhold Lubenau

³ - Antonius Menavinius

⁴ - Nicolaus Höniger

⁵ - Basel

⁶ - Hofhaltung des türkischen kaisers und oltomanische Reiches Beschreibung.

⁷ - Wilhelm Dilich

بداية القرن الحادى عشر الهجرى/السابع عشر الميلادى، عن بىمارستان بايزيد الثانى، بجانب مسجد بايزيد فى إسطنبول. وأشار ديليش (ص 52) إلى بىمارستان آخر، كان السلطان سليم ابن السلطان سليمان القانونى، قد بناه فى السنة الثالثة من جلوسه على عرش السلطنة، إنما لم يُعثِر عليه حتى الآن. نذكر فضلاً عن هذه البيمارستانات، بىمارستان مجموعة السلطان أحمد الذى كان قد بُني في العام 1025هـ، وزال من الوجود في القرن المنصرم (إيوانسرابى، ماج 1، ص 18-19).

أبرز سمات البيمارستانات العثمانية، إنها كانت دائمًا جزءاً من مجموعة مؤلفة من المسجد والمدرسة و "العماره" [إطعام خانة=المضافة=دار الإطعام]، وتابخانة [نوع من أنواع دور العجزة]، ومحطة القوافل [الخان]، والحمام، والسوق، و "النبع" [= خرّان مياه خيريّ]، ومبانٍ من هذا القبيل.

يُلاحظ في البيمارستانات العثمانية استمرار التقاليد المعمارية السلجوقيّة (دار الشفاء إيلدرم بايزيد في بورصة، ودار الشفاء حفصة خاتون في مغنيسا)، لكنْ في بىمارستانات عصر التحديث شاع استخدام العناصر المعمارية الجديدة (مثل بىمارستانات اسطنبول، إنجاز سinan). "دار الشفاء" بايزيد الثانى في أدرنة، إنجاز المعماري خير الدين أثر تاريجي نادر المثال في تاريخ البيمارستانات، كان يشَكّل كما يقول أولياء شلبي (مج 3، رقم 449، الورقان 163 و 164) مع المدرسة المجاورة له، المختصّة بتدريس الطبّ مركز الثقل في مجموعته، على العكس من المجموعات السابقة، التي كان المسجد في معظمها هو مركز الثقل. يدلّ التشابه بين الخصائص المعمارية لدار الشفاء جوهر نسب في قيصرية، ومدرسة السلطان غياث الدين الطبيّة في جوارها، على أنَّ التركيز في هذا البيمارستانات كان على الجانب العمليّ أكبر من الجانب النظريّ. يتَّألف هذا البيمارستان من مبنيٍّ رئيسيٍّ مسدس الزوايا، فيه ستّ حُوّطات مقببة، تحيط بمحوّطة مركزية قبّتها أكبر. في الباحة الصغرى المتصلة بها، مبنيٌّ إداريٌّ هو على الأرجح المستوصف، وغرف الباحة المركزية الستّ، ومكان حجز المرضى الخطرين، والمطبخ وغرفة الغسيل. في القسم النهائيّ منه يُصل باحة البيمارستان بالمدرسة الطبيّة. يتضمن المبني الأساسيّ باحة مركزية، مسقوفة بقبّة، وفي وسطها حوض. لُحوظ في محيط الباحة ستة مواضع لإيواء المرضى في الشتاء، وستة لإيوائهم صيفاً. يبدو أنَّ الغرفة المقابلة للمدخل كانت غرفة موسيقى؛ فهي مبنية على نحوٍ مجهّز صوتيًّا بالكامل. في العام 1457هـ/861م وضع أنطونيو

فيلارت¹، خريطة مبنى اوسبداله ماغيوره [مستشفى ماغيوره] في ميلان، ولحظ فيه التهؤة المركبة، وبعد ذلك بثلاثين عاماً بني المهندس المعماري خير الدين في أدرنة، بأمر من السلطان بايزيد الثاني، دار الشفاء الذي يُعد الأول من نوعه من حيث التجهيز الصوتي لغرفة الموسيقى، ومن حيث تأمين التهؤة المركبة على حد سواء. يتحدث ستورم² في الدليل الكامل للمستشفيات المخصصة للعجزة والمرضى³، الذي نُشر في أوغسبورغ في العام 1132هـ/1720م، عن التشابه بين مخطط الأبراج ملاقيف الهواء التي كانت تقام فوق القبة المركزية للبيمارستانات، والبرج الملاقي في دار الشفاء بايزيد الثاني. وذلك لأن خير الدين حل مشكلة تهؤة الغرف من خلال وصل الغرف الصيفية ببرج التهؤة، وتجهيز الغرف الشتوية بروازن [فتحات] لسحب الهواء (ترزي أوغلو، 1985م، ص 16-24). لذا فإن أحاجزة التهؤة في المستشفيات الأوروبية والأميركية في القرن الثالث عشر الهجري/الناسع عشر الميلادي تشبه إلى حد كبير طرق التهؤة في دار الشفاء بايزيد الثاني في أدرنة (كون، ص 519، 884، الصورة 420، ص 941، الصورة 444).

في العصر الذي كان فيه المرضى النفسيون في أوروبا يُحرقون، لُحِظَت في دار الشفاء بايزيد الثاني في أدرنة، جميع التدابير الالزمة لتطهير المرضى، ومن ضمنهم المرضى النفسيون، وفوق ذلك غرفة موسيقى، كما جُهِّز المستشفى بنظام تهؤة اقتصادي، يمكن أن يكون المثال الذي احتذته المستشفيات في القرنين الثاني عشر والثالث عشر الهجريين/الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين.

شُيِّدت في أدرنة وإسطنبول بيمارستانات لرجال البلاط، سواء الذين يعيشون داخل القصور والحرملك، والذين يعيشون في خارجها، لا تزال آثارها باقية حتى الآن، من بينها، "حسته لق اوَدَه سى" [غرفة المرضى]، التي كانت قد جُهِّزت في عهد السلطان سليمان القانوني في قصر طوبقابي سراي لـ"البيشنيين" [= حرس السلطان] ← بُستانجي* وظلت حتى العام 1248هـ، تاريخ هدمها، تعمل باسم "دار الجراحة العاملة"، كمدرسة عليا متقدمة للجراحة.

من ضمن البيمارستانات العديدة التي كانت قد أُسْتَنَدَت في قصر طوبقابي سراي، لم يبق سوى البيمارستان الذي شُيِّد بأمرِ من السلطان محمد الفاتح، وصار على صورته الحالية في القرن العاشر الهجري، في زمن السلطان سليمان القانوني. كان هذا البيمارستان يُسْمَى

¹ - Antonio Filarete

² - L. ch. Sturm

³ - Vollständige Anweisung spitäler für Alte und kranke.

"جاريه لر خسته خانه سی" [مستشفى الجواري]، ومحصّص لتطبيب نساء الحرملك. هنالك شبه كبير من حيث الخصائص المعمارية، بين المستشفى الملكي بالهاوس بلاتس¹ في فيينا في القرن العاشر الهجري/السادس عشر الميلادي، ومستشفى سانت ياكوبس [القديس يعقوب] في درسدن² (البناء: 943هـ/1536م)، ببيمارستان الإيلدرم [السلطان] بايزيد في بورصة.

في القرن الحادي عشر الهجري/السابع عشر الميلادي كانت البيمارستانات العثمانية منتشرة في جميع أنحاء الدولة العثمانية من بودابست حتى كريمة، ومن سالونيك حتى مكة، وكانت تعمل كلّها، وبلغت عصرها الذهبي في عهد السلطان محمد الرابع (1058-1098هـ) (أولياء شلي، ط. دانيشمان، مج 10، ص 35، مج 11، ص 216، مج 12، ص 1080، مج 14، ص 266). ففي تلك الآونة كان في اسطنبول وحدها 183 مستشفى تستقبل المرضى (← شترن³، ص 100-101).

في أوائل القرن الثالث عشر الهجري، بدأ تجهيز المستشفيات الحديثة على النمط الأوروبي، والماكرز الطبية- التعليمية العصرية.

تبين الرسالة المؤرخة في 18 ذي القعدة 1219هـ [17 شباط 1805م]، المرسلة من وزير "البحرية" إلى "الباب العالي" (سحل محفوظات الولايات العثمانية، جودت- البحرية، رقم 1259)، المتعلقة بتعيين رئيس الأطباء، ورئيس الجنرالين لـ "الأوسبيتاليا"⁴ [المستشفى]، أنّ هذه المؤسّسة كانت مركزاً تعليمياً حديثاً، أُسّست بهدف إعداد الأطباء والجنرالين للخدمة في "ترسانة قاسم باشا العامرة" [مصنع السفن]. في الثالث من ذي الحجّة من العام 1254هـ/1838م، تقليداً ليوزفينوم⁵ في فيينا، افتتح في غلطة سراي [قصر غلطة] "مكتب طبية عدلية شاهانه" [مدرسة الطب الملكية العدلية]، لتدريس الطب الحديث، مع مستشفى تعليمي تابع لها (ترزي أوغلو، 1990م، ص 129-133). في العام 1258هـ/1842م، أستُدعيَ الدكتور لورنتس ريغлер⁶ النمساوي إلى اسطنبول لعصرنة المستشفيات العسكرية؛ فأعاد تجهيز البيمارستان العسكري في محلّة مال تبه، الذي كان قد شُيُّد في زمن السلطان محمود الثاني، على طراز اليوزفينوم في فيينا، وكان له دورٌ كبيرٌ في مخطط الأبواب الستة للبيمارستان العسكري الجديد وتجهيزه. في العام 1259هـ/1843م، أنشأت والدة السلطان عبد الحميد

¹ - Balhausplatz

² - Dresden

³ - Stern

⁴ - Spitalia/Hospital

⁵ - Josefinum

⁶ - Lorenz Rigler

بيمارستان "المسلمون الغرباء"، تقليداً على الأرجح لـ "الجمينه كرانكِنهاوس"¹ [البيمارستان العمومي] في ميونيخ، وكان أول مستشفى عمومي عثمانيّ جديد. كذلك فإنَّ بيمارستان أطفال الحميدية، الذي افتتح في العام 1317هـ/1899م في محلّة شيشلي، هو مستشفى حديث للأطفال، على غرار مستشفى الأطفال كايزر وكايزررين فردريش² في برلين. بدأ بعد هذه المؤسّسات إقامة البيمارستانات التركية الجديدة، وحلَّ الاسم "خسته خانه" محلَّ الأسماء: بيمارستان، بيمارخانه، تيمارخانه، شفاحانه، ودار الشفاء.

المصادر والمراجع: ابن أبي أصيبيعة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ط. 3 نزار رضا، بيروت 1965م؛ ابن بطوطه، الرحلة، بيروت [لا تا.]; ابن جُبير، الرحلة، بيروت 1400هـ/1980م؛ ابن خلّكان، وفيات الأعيان، ط. إحسان عباس، بيروت 1968-1972م؛ ابن دقماق، كتاب الانتصار لواسطة عقد الأمصار، بولاق 1310هـ/1893م، ط. أوفرست بيروت [لا تا.]; ابن فضل الله العمري، مسالك الأ بصار في ممالك الأمصار، ط. تشنر، لايبزيغ 1929م، فيسبادن 1968م؛ ابن النديم، الفهرست، ط. رضا تجدد، طهران 1350ش [1971م]؛ ابن هشام، السيرة النبوية، ط. مصطفى السقا وابراهيم الأبياري، وعبد الحفيظ شلبي، القاهرة 1375هـ/1955م؛ محمد ظلي بن درويش أولياء شلبي، سياحتناه [مدونة الرحلة]، النسخة الخطية في المكتبة السليمانية، [قسم] بشير آغا، رقم 449، 452؛ حسين إيوانسرايي، حديقة الجوامع، اسطنبول 1281هـ؛ [شرف الدين بن شمس الدين البديسي، شرفنامة: تاريخ مفصل كردستان، ط. محمد عباسى، ط. أوفرست طهران 1343ش [1964م]؛ فتح بن عليّ البنداري، تاريخ السلالة السلجوقية: زبدة النصرة ونخبة العصرة، النسخة الفارسية، ترجمة محمد حسين الخليلي، طهران 1356ش [1977م]]؛ مصطفى شلبي حلال زادة، طبقات الممالك ودرجات الممالك، النسخة الخطية في المكتبة السليمانية، [قسم آيا صوفية، رقم 3296]؛ محمد بن إبراهيم الزركشي، تاريخ الدولتين، تونس 1289هـ؛ أحمد بن خالد السلاوي، كتاب الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، ط. جعفر ناصري ومحمد ناصري، الدار البيضاء 1954-1956م؛ حسن عبد الوهاب، "الطب العربي في أفريقية"، مجلة الفكر العربي، مج 3، العدد 10 (1958م)؛ أحمد عيسى، تاريخ البيمارستانات في الإسلام، دمشق 1357هـ؛ [محمد قاسم بن غلامعلي فرشته، تاريخ فرشته، أو گلشن ابراهيمى [الروضة الإبراهيمية]، لكتено 1281هـ]؛ عليّ بن يوسف القسطي، تاريخ الحكماء، وهو

¹ - Allgemeine Krankenhaus

² - Kaiser und Kaiserin Friedrich Kinderkrankenhaus.

مختصر الزوزني المسمى بالمنتخبات الملتفقات من كتاب أخبار العلماء بأخبار الحكماء، ط. ليبرت، لا يزيد على 1903م؛ أحمد بن علي القلقشندى، صبح الأعشى، القاهرة 1910-1920م؛ عبد الواحد بن علي المراكشى، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، ط. دوزي، ليدن 1881م؛ علي بن الحسين المسعودى، مروج الذهب ومعادن الجوهر، ط. محيى الدين عبد الحميد، القاهرة 1367هـ/1948م، بيروت 1384-1964هـ/1965م؛ أحمد بن محمد المقرىء، نفح الطيب، ط. إحسان عباس، بيروت 1388هـ/1968م؛ أحمد بن علي المقرizi، كتاب الموعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار، بولاق 1270هـ؛ أحمد بن إسحاق اليعقوبى، كتاب البلدان، ط. دخویه، ليدن 1892م؛

أجنبي...

/إسلام ترزي أو غلو ملخصاً من (د. أ. د. التركية)/

إيران. بيمارستان جنديسابور، أقدم بيمارستان إيراني، تتوافر المعلومات عنه. من الصعب إبداء رأي حاسم حول تاريخ تأسيسه، وبانيه، ومدرسته الطبية الشهيرة، لكنَّ ما حكاه الفردوسى (مج 7، ص 252) عن إعدام مانى شنقاً مقابل بيمارستان جنديسابور، يدلُّ دلالة قاطعة، على أساس الرواية المتداولة على الأقل في عصر الشاعر، أنَّ هذا البيمارستان كان موجوداً في عصر سابور الثاني (309 أو 310-379م) (قارن الدينوري، ص 47). سُرُّعان ما وُسّع هذا البيمارستان في عصر كسرى أنوشروان (579-531م)، بمساعدة السريان النساطرة، وحظي بالشهرة، ووصل إلى أوج مجده وعظمته (إقبال الآشتيانىي، ج 1، ص 216؛ دانلُب، ص 219؛ قارن كريستن سن، ص 445؛ الغود، ص 46-47). بعد أن دخل الإسلام خوزستان (البلادُرىي، ص 370 وما بعدها) لم يلحق أيَّ أذى بالمدرسة ولا بالبيمارستان (نصر، ص 396). والظاهر أنَّ المسلمين كانوا يعرفون هذه المدينة وبيمارستاناها من قبل، فبعد وقت وجيز، استدعى النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ الحارث بن كلدة، الذي كان قد تلقى العلم في جنديسابور لتطبيب أحد الصحابة في الحجاز (ابن جلجل، ص 54؛ قارن الغود، م. ن، ص. ن؛ نسيمي، ص 823، الذي سُمِّيَ آخرين من العرب تلقوا العلم في جنديسابور). استطاع هذا البيمارستان، الذي فقد بعد سقوط الساسانيين دعمَ الحكومة المركزية الماليَّة والمعنويَّة، أنْ يصمد ثلاثة قرون بعد ذلك، بفضل جهود أطْبَائِه وأساتذته وإيرانيَّة الناحية، وأنْ يتحول إلى أهمَّ صلةٍ وصلٍ بين الثقافة الإسلامية الناشئة وبين الحضارات

الإيرانية والهندية واليونانية، وأن يكون أول مركزٍ طبيٍ في الحضارة الإسلامية. علمًا أنَّ هنالك إشارات إلى علاقة أطباء بيمارستان جنديسابور ومدرسته بيلات الخلفاء الأمويين (عيسى، ص 63)، لكنَّ علاقة هذا البيمارستان الرسمية بعاصمة الخلافة الإسلامية بدأت في عهد المنصور العباسى الذي استدعى الطبيب جورجيس بن بختيшуوع، رئيس بيمارستان جنديسابور إلى بغداد، لمعالجته (القطبي، ص 158-159). منذ ذلك الحين بدأ أطباء جنديسابور، لا سيما ذوو المكانة الرفيعة من عائلة بختيшуوع تدرِّجُوا بالانتقال إلى بغداد، حيث نالوا الحظوة لدى الخلفاء والوزراء، كما نالوا تقدير الناس واحترامهم (← الجاحظ، ص 145). يمكننا أن ندرك كذلك أهمية بيمارستان جنديسابور، من تسمية جنديسابور باسم "مدينة بقراط" (برون، ص 23). لا تتوافر معلومات عن تاريخ القيار بيمارستان جنديسابور، الذي استمرَّ ناشطًا على الأقلِّ إلى حين وفاة سابور بن سهل (255هـ)، آخر من ذُكر اسمه رئيسًا لهذا البيمارستان (ابن النديم، ص 355).

يُعدُّ التنظيم الإداريُّ والعلميُّ للبيمارستانات الإيرانية في المرحلة الإسلامية، الذي كانت نشأته في جنديسابور، ومنها انتقل إلى سائر أنحاء العالم الإسلامي، من أرقى نماذج المؤسسات العامة في الشرق الإسلامي، لا سيما في إيران. وعلى الرَّغم من أنَّ الذين كانوا يتولّون الإشراف العام على البيمارستانات، لم يكونوا من ذوي الاختصاص، كان "الساعور" (القطبي، ص 397) أو "متولي" البيمارستان، أو في الحقيقة المدير الداخلي له، أحد الأطباء دائمًا، وهو الذي يتولّ رئاسة الأطباء الآخرين. كانت البيمارستانات الكبرى تقسم إلى قسمين رئيسين: قسم المرضى العابرين، وقسم المرضى النزلاء؛ المرضى العابرون يذهبون بعد أن يعاينهم الطبيب إلى صيدلية المستشفى للحصول على الدواء (ابن أبي أصيّعه، ط. القاهرة، مج 2، ص 243)، أمّا المريض الذي يجب، بعد تشخيص الطبيب، أن يتلقّى العلاج في المستشفى، فيُنقل إلى القسم الخاصّ بمرضه، وفي كلّ قسم من هذه الأقسام، بما فيها قسم الأمراض الداخلية، والتجبير، والجراحة، وطب العيون (← م. ن، مج 1، ص 254، 310)، عددٌ من الأطباء والمساعدين والخدم مناسبٌ لأهمية المرض ولعدد المرضى، وكان هنالك عدد من العاملين يخدمونَ في البيمارستانات بصفات مختلفة، مثل "الوكيل"، و"الناظر"، و"أمين الخزانة"، و"الحارس" (ابن الجوزي، مج 7، ص 112). فضلاً عن هؤلاء كان هنالك أيضًا أشخاص يُشرفون على أموال الوقف، وعلى وجوه إنفاقها (ابن أبي أصيّعه، ط. بيروت، مج 2، ص 203).

كانت البيمارستانات في معظم الأحيان، ثُدار من رِيع الأوقاف الكثيرة، التي كان يقفها عليها مؤسّوها، أو بحسب الأمراء والوزراء والآثرياء، أو الأسماء التي يقرّونها لها في وصيّاتهم. ومن هذه السبل نفسها كانت تؤمن رواتب الأطباء والعاملين، ونفقة علاج المرضى وأثمان أدوائهم، ونفقات استشفائهم وإطعامهم. كان البيمارستان، الذي يُعنى عادةً في نقطة من أفضل نقاط المدينة طيباً مُناخ، ووفرة مياه، يتضمن فضلاً عن الأقسام الاستشفائية المتعددة، جناحاً لإقامة الأطباء، وطلبة الطب (على سبيل المثال ← رشيد الدين فضلا الله، 1977م، ص 224، 234). إن إقامة الأطباء قرب البيمارستان من الظواهر المهمة في تاريخ البيمارستانات، فقد كان البيمارستان فضلاً عن وظيفته العلاجية والاستشفائية، يُعدّ المركز الأساسي لتعليم الطب (← الطب*)، ويلغى الفرق بين الطب النظري والطب التجاري والعملي. فضلاً عن البيمارستانات الكبيرة المعروفة، كان لدى جميع المدارس ذات الأوقاف، حتى العصور المتأخرة، مستشفى، فيه أطباء موظّفون، يتولّون معالجة المرضى وتعليم الطلبة (نفيسي، ص 19). من الظواهر اللافتة الأخرى، المستشفيات السيّارة أو "الحمولة"، التي كانت تقدم خدمات جلّي، لا سيّما في أثناء الحروب، أو تفشي الأوبئة. كانت هذه البيمارستانات وملحقاتها، بما في ذلك الطبيب والممرّض والصيّلية، والآلات والأدوات الطبية، والجراحية، وحتى ثياب المرضى، تُحمل كلّها على الدواب (عماد الدين الكاتب، ص 124). هذه المستشفيات السيّارة، كانت تتفقد حتى السجون، كما كانت تُرسّل أحياناً بأمر أحد الأمراء إلى النواحي البعيدة لتطبيب الناس من مختلف الطبقات، من المسلمين وغير المسلمين (نفيسي، ص 21).

كانت تأسيس البيمارستانات في إيران بعد الإسلام أمراً شائعاً، مع ذلك فإن المعلومات عن أول البيمارستانات في هذه المرحلة ضحلة جدّاً، كما أن تحديد تاريخ تأسيسها أمرٌ صعب. لأنّ هذه المؤسّسات تكون على الأرجح صغيرة في بداية الأمر، وغير ذات أهمية، ومن ثم تتوسّع، وتصبح ذات أهمية. فالمستشفى الشهير - الذي تولّى الرازي رئاسته أكثر من مرتّة - يمكن حسبانه استناداً إلى الآثار والقرائن التاريخية والجغرافية، عائداً إلى عصر ما قبل الإسلام (كريمان، مج 2، ص 362)، إنّما لا يمكننا تحديد تاريخه بعينه. كان في زرنج من نواحي سيسستان بيمارستان أيضاً، بني عمرو بن ليث الصفاري بجانبه سوقاً، وقفَ قسماً من مداخلها عليه (الأصطخرى، ص 241). والظاهر أنّ هذين المستشفين كانوا من أقدم المستشفيات الإيرانية بعد الإسلام (نجم آبادي، مج 2، ص 768). يمكننا أن نذكر بعدهما المستشفى العضدي في شيراز، الذي أسّسه عضد الدولة الديلمي. في الحقبة نفسها، كان في إصفهان

بيمارستان مهمّ، يُطّبب فيه ابن مندوّيه الإصفهانيّ، أحد الأطباء المشهورين في القرن الرابع الهجريّ (ابن أبي أصيّعة، ط. القاهرة، مجلد 2، ص 21-22)، وهذا البيمارستان يعود ربّما إلى العصر البوّيّهيّ (نجم آبادي، م. ن، ص. ن).

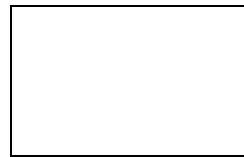
في ذلك الحين، بُني في ترمذ بيمارستان جُعلت له أوقاف خاصة، بفضل أبي الحسن محمد بن الحسن (ابن حوقل، ص 454-455). في فیروزآباد من نواحي فارس، كان هنالك أيضاً بيمارستان مهمّ، أتى على ذكره ابن البلخيّ (ص 139).

في القرن الخامس الهجريّ، كان في المدن الإيرانية عدّ من البيمارستانات العاملة، تتوافر معلوماتٌ عن بعضها. فقد بني أبو سعيد النيسابوريّ الملقب بالخر كوشيّ (المتوفى سنة 407هـ)، أحد الفقهاء الزهاد في ذلك العصر، بيمارستانًا في نيسابور (الأسنويّ، مجلد 1، ص 228-229)، ربّما يكون هو نفسه البيمارستان الذي سكن الخطيب السمرقندى في حديقته، في العام 409هـ، حين قدم إلى نيسابور (الصريفيينيّ، ص 214).

بني الخواجة نظام الملك أيضاً بيمارستانًا كبيراً في نيسابور (السبكيّ، مجلد 4، ص 314)، قيل إنَّ نفقاته اليومية بلغت ألف دينار - من صندوق الصدقات - (عيسي، ص 268، نقلًا عن ابن المُلْقَنْ). كان في خوارزم كذلك بيمارستانًا رآه ابن بطوطة في العام 733هـ، وذكر اسم طبيبه المدعو الصهيونيّ (ص 366). كان في مرو كذلك بيمارستان يُطّبب فيه عيسى بن ماسه (ابن البيطار، مجلد 2، ص 15).

في القرن السابع الهجريّ بُني في شيراز عاصمة أتابكة فارس عدّة بيمارستانات كبيرة وذات أهمية بأمرٍ من اثنين من وزراء هذه العائلة. فقد بني كلُّ من الأمير مقرب الدين مسعود والأمير فخر الدين أبي بكر، ووزير أبي بكر بن سعد بيمارستانًا، وجعل له أوقافاً (زركوب الشيرازيّ، ص 59-60). في الحقبة نفسها بُني أيضاً البيمارستان المظفرى في شيراز، اشتغل فيه العالمة قطب الدين الشيرازيّ، الطبيب والفيلسوف الشهير لمدة عشر سنوات (الفسائيّ، مجلد 2، ص 1148-1149). في ذلك الحين، بُني أيضاً في يزد البيمارستان الصاحبى الكبير، باسم الخواجة شمس الدين محمد صاحب الديوان، الذي عين مكاناً لتأمين نفقات الأطباء والمرضى، ووقف قسماً من قريةٍ عليه (الجعفريّ، ص 111-113). ورد كذلك ذكرُ بيمارستان في كرمان، بنته قُتلغ ترkan خاتون، ملكة كرمان، القراطائية المعروفة، وزوجة قطب الدين محمد (نفيسي، ص 18). لكنَّ البيمارستان الإيرانى الأكبر في القرنين السابع والثامن الهجريّين، هو الذي بناه رشيد الدين فضل الله الهمدانى وزير غازان خان. كان هذا

البيمارستان الذي بناه في تبريز في الربع الرشيدية، يتضمن أجنحةً إستشفائيةً عديدة، وصيدلية، ومساكن للأطباء والعاملين، وأورد في وقفيته، أنْ يقوم الأطباء العاملون فيه بتدريس الطب أيضاً (ص 180-183). كان هذا البيمارستان أحد البيمارستانات، التي طلب رشيد الدين فضل الله من ابنه جلال الدين في آسيا الصغرى، أنْ يُرسل إليها خمسة منّ [المنّ] معيار قديم يُكال به أو يوزن وقدره إذ ذاك رطلان بعوادٍ [ان] من الأدوية المختلفة (نفسه، 1979م، ص 92؛ قارن براون، ص 105). جمع رشيد الدين في هذا البيمارستان فريقاً من الأطباء المهرة من مختلف أنحاء العالم الإسلامي، واحتار لكلٍّ منهم مساعدين من طلبة الطب (نفسه، 1977م، ص 224). كانت مساكن الأطباء تقع في محلّة الصالحة بالقرب من البيمارستان (م. ن، ص 180). الأوصاف المفصلة لأوقاف بيمارستان تبريز، مدونة في وقفيّة الربع الرشيدية. أعاد رشيد الدين كذلك العمل في البيمارستان الأتابكي في شيراز، الذي كان في حالة انهيار، وعيّن الطبيب محمود بن إلياس الشيرازي مشرفاً عليه، كما أطلق العمل أيضاً من جديد في بيمارستان همدان (الغود، ص 312).



الصور لاما عدالت ونيما جهانين

قطرة مدخل خرائب بيمارستان مرسلين (أول بيمارستان في كرمان).

الظاهر أنَّ تلك الجهود الحثيثة، لم تفلح في تحسين أوضاع البيمارستانات التي بدأت تتدهور تدريجياً. فعلى الرَّغم من أنَّ تيمور كان قد أصدر أمراً بإنشاء مستشفى واحد على الأقل في كل مدينة من المدن الواقعة في نطاق حكمه (تيمور الغور كاني، ص 368، 370)، آلت هذه المؤسسات إلى الانهيار، واستمرَّ الوضع على هذا النحو في العصر الصفوي، وكما قال رفائيل دومانس¹، كان الناس على الرَّغم من وجود مستشفى أو اثنين في كل مدينة من المدن الكبرى، لا يعيرونها اهتماماً، حتى أنَّهم كانوا يسمُّونها "دار الموت" (الغود، ص 398). أدت الاضطرابات السياسية والعسكرية الداخلية والخارجية في أواخر العهد الصفوي، والتي امتدَّت حتى العصر القاجاري، دفعَةً واحدةً إلى انهيار البيمارستانات الإيرانية، ونُهِبَ أوقافها الواسعة والقيمة. فقط، ابتداءً من عصر فتحعلی شاه القاجاري وما بعده، ظهرت

¹- Raphael Du Mans.

بيمارستانات تعدّ على الأصابع هنا وهناك، على النمط القديم، لا يمكن على الإطلاق مقارنتها من حيث التنظيم الإداري، والطبي بالبيمارستانات الكبرى المهمة في العصور السابقة. فضلاً عن البيمارستان الذي بناه فتحعلي شاه في طهران، والذي هُدم حين شُقَّ شارع بودرجهري (نفيسي، ص 3)، في عصر ناصرالدين شاه، خصّص أيضًا الحاج الميرزا حسين خان السبهسالار الأعظم، في وقفية مبني المدرسة الناصرية، التي عُرفت في ما بعد بمدرسة سبهسالار، قسماً من المبني للبيمارستان (م. ن، ص 19). منذ ذلك الوقت وإلى حين تأسيس البيمارستان الإيراني على النمط الحديث في طهران، ليس في متناولنا معلومات عن إنشاء بيمارستانات في إيران، باستثناء بيمارستانات البعثات التبشيرية والأجنبية.

البيمارستانات الحديثة. في الحقبة نفسها التي تقدمت فيها البيمارستانات الإيرانية، وآلت إلى الزوال، بدأت بعض الدول الأوروبية الساعية إلى بسط نفوذها في سواحل الخليج الفارسي والمحيط الهندي، مباشرةً، أو بواسطة الشركات التجارية، أو الخدماتية التابعة للبعثات الدينية المرتبطة بها، بتأسيس البيمارستانات في المدن والسواحل الإيرانية. يجب عدّ تأسيس هذه البيمارستانات، على الرّغم من أنّها كانت في البداية صغيرة، ولم تحظَ بترحيبٍ يُذكر من السّكان المحليّين، مقدّمة دخول الطبّ الأوروبي إلى إيران. من الواضح أنّ إدارة تلك المراكز العلاجية كانت في أيدي منشئها، وفي معظم الأحيان كانوا هم الذين يتولّون الإنفاق عليها. أول بيمارستان تبشيريٍّ في إيران، قبل احتلال القوات الإيرانية- الإنجليزية في العام 1032هـ/1622م جزيرة هرمز، بناء البرتغاليّون في تلك الجزيرة. قدم هذا البيمارستان المسمّى "ميسري كورديا"¹، والذي كان بإدارة رهبان فرقة أوغسطين، الكثير من الخدمات الخيريّة، وذات المنفعة العامة، شاهد جان فراير²، طبيب شركة الهند الشرقيّة، في أواخر العصر الصفوّي في العام 1088هـ/1677م، في قرية صغيرة بالقرب من ميناء غُمّبرون (بندر عباس)، بيمارستانين جميّلين ونظيفين. كان الهولنديّون قد بنوا أحدهما، والآخر بناءً مصرفياً هنديّاً يعمل في خدمة شركة الهند الشرقيّة (الغود، ص 399). فقد أسّست هذه الشركة في عدد كبير من موانئ الخليج الفارسي المهمة محاجر صحيّة [قرنطينات] ومستشفيات، وافتتحت حوالي العام 1140هـ/1727م مستشفى صغير في غُمّبرون، تولّى رئاسته الدكتور فوربر³. كان بيمارستان البصرة على ما ييدو أهمّ المراكز العلاجية التابعة للشركة، وقد نُقل إلى بوشهر

¹- Misericordia

²- j. Fryer

³- Anthony Forbes.

بعد أن قررَ كريم خان الزنديّ شنّ حملة على البصرة (م. ن، ص 408، 431). بعد أن بسطت الحكومة البريطانية رسماً سلطتها في المنطقة بديلاً من الشركة، تولى إدارة هذه البيمارستانات مثلّو هذه الحكومة السياسيون. في أوائل القرن الثالث عشر الهجري/أواخر القرن الثامن عشر الميلادي أسس أيضاً "المندوب الدائم" للحكومة البريطانية بيمارستانًا في بوشهر (رايت، ص 122). أسست شركة البرق الهندي أوروبيّة¹، التي كانت في أيدي الإنجليز في بعض نواحي الخليج الفارسي الساحلية مستوصفات وصيدليات. تُحسب الحاجر الصحّيّة [القرنطينات] الحدوديّة الإنجليزية في الموانئ الإيرانية أيضاً من ضمن المراكز العلاجية الجديرة بالذكر، في بداية تأسيس البيمارستانات الحديثة في إيران. كانت هذه القرنطينات تقدم في الموانئ التي تخلو من البيمارستانات والأطباء، خدمات جلّي، وكانت بالإضافة إلى مهمّاتها تقوم بمعالجة المرضى المخلّين، لا سيّما الفقراء (سديد السلطنة، ص 169).

أسس الروس كذلك، الذين كانوا يسعون لإيجاد منطقة نفوذ لهم، أول بيمارستان في العام 1264هـ/1848م للاحي سفنهما، وحصلوا على امتياز إنشاء بيمارستان آخر في استرآباد (ألغود، ص 512؛ تيموري، ص 269-273). مع ذلك لم يؤدّ هذا النوع من البيمارستانات إلى انتشار البيمارستانات الحديثة في إيران. وذلك على الرّغم من أنّ طبيب بعثة الجنرال غوردن الفرنسيّ، قد أسس في عصر فتحعلي شاه القاجاريّ مركزاً علاجيّاً في العاصمة (ألغود، ص 441)، فإنَّ التأسيس الرسمي للبيمارستانات الحديثة في إيران بدأ في عصر ناصرالدین شاه.

في العام 1288هـ/1871م، أمر حسين خان مشير الدولة سبهسالار، نفيسى ناظم الأطباء بإنشاء أول بيمارستان إيرانيّ في طهران على النمط الحديث. أسس هذا البيمارستان في شارع خارج المدينة [اشتُهر في ما بعد باسم شارع البيمارستان] (نفيسى، ص 19-20). بني نفيسى أيضاً، بأمرٍ من سبهسالار، بيمارستانًا حديثاً في مشهد، سُميَ دار الشفاء وظلَّ مدةً طويلةً المستشفى الوحيد في مشهد (حكيم المالك، ص 259؛ نفيسى، م. ن، ص. ن). في العام 1300هـ أسس الدكتور جوزيف كوتشران، عضو البعثة التبشيرية الأميركيّة في أروميه بيمارستانًا في هذه المدينة باسم "وست مينستر"، وقام بتدريس الطبّ فيه (إيرانشهر، مج 2، ص 1449). افتُتح في طهران أول بيمارستان أميركيّ، كان مركزاً تعليميّاً أيضاً في العام 1311هـ/1893م، وظلَّ يُعمل حتى العام 1359هـ/1941م. حيث توقف عن العمل مع

¹ - Indo-European Telegraph

بدء الحرب العالمية، وندرة الأطباء (م. ن، مج 2، ص 1449-1450هـ). لكنه بعد مدة استعاد فاعليته، وظلّ بإدارة الأمير كيّن حتى أواخر العام 1397هـ/1978م، تاريخ انتصار الثورة الإسلامية.

وسعّت البعثة الإنجليزية التابعة لـ "هيئة المبشرين المسيحيين، لندن" أنشطتها الطبية في جنوب إيران، بسبب اهتمام الحكومة البريطانية بهذه المنطقة، وبنّت بيمارستانات مخصصة للرجال وللنّساء في كلّ من إصفهان وكرمان ويزد وشيراز، كانت المستشفيات الأولى في هذه المدن (رأيت، ص 118-122). أسّس أول بيمارستان تبشيري، في جلفا، في حيّ الأرمن، وفي العام 1312هـ/1894م بدأ دورهًّا جديداً من فاعليته، مع قدوم الدكتور كار¹ إليه. كذلك أسّست السيدة ماري برد² مستوصفين في ناحيتين من إصفهان، سرعان ما توقفا عن العمل (أغود، ص 534). بعد تأسيس مركز المبشرين المسيحيين في منطقة جلفا في إصفهان، بني أعضاء البعثة، في حرم البعثة الواسع في العام 1314هـ/1896م بيمارستانًا وصيدلية، وبعد ذلك بيمارستانًا للنساء. ومن ثمّ بنت هذه البعثة التبشيرية بيمارستانًا في يزد في العام 1316هـ/1898م، وآخر في كرمان في العام 1319هـ/1901م، وفي العام 1342هـ/1924م بنت بتمويل محمد حسين نمازي، دار التوليد في شيراز، الذي تحول في ما بعد بمساعدة إدارة البرق الهندوأوروبية إلى بيمارستان كبير (>جهان إسلام<³، ص 182). في العام 1343هـ/1925م، أسّس الدكتور كار (← الأسطر السابقة) بيمارستان مرسلين في شيراز (الكافوري)، حديث بتاريخ 25-7-2000. مع ذلك كله، يبدو أنَّ السكّان المحليين لم يرحبوا في بداية الأمر بهذه البيمارستانات؛ حتى أنَّ أهالي إصفهان لم يسمحوا لأعضاء هذه البعثة ببناء مستشفى في الأحياء التي يسكنها المسلمين، لكنْ في نهاية المطاف بني الدكتور كار في العام 1320هـ/1902م مستوصفاً في المدينة، ووُهِب تاجرٌ ثريٌ أيضاً قطعة أرض كبيرة لبناء مستشفى للرجال وللنّساء. في هذه البيمارستانات كان الطالب يتعلّمون فنون الطب، ومن ثمّ سمحت الحكومة الإيرانية لأساتذتهم بإصدار شهادات الطب، كما منحت 1333 سهماً من ميزانية الدولة لبيمارستان إصفهان (أغود، ص 535). بنت البعثة التبشيرية الأميركية كذلك في العام 1321هـ/1903م بواسطة الدكتور فانك⁴ بيمارستانًا في همدان، طُور في العام 1335هـ/1916م. في العام 1323هـ/1905م شُكّل في طهران أول مجلس المحافظة على

¹ - D. W. Carr

² - Mary Bird

³ - The Moslem World.

⁴ - Fank

الصحة" ، ودُون له نظام داخلي يفيد بتأسيس قرنطينات [محاجر صحية] في الموانئ الإيرانية، ومركز تلقيح الجدري، وإنشاء بيمارستان خاص بالنساء والرجال (إيرانشهر، م吉 2، ص 1404)، وانتقلت إدارة بعض البيمارستانات الأجنبية إلى الحكومة الإيرانية. البعثة التبشيرية الروسية، لم يكن لها نشاط يُذكر في مجال تأسيس البيمارستانات في إيران؛ في العام 1333هـ/1915م أرسل قنصل روسيا القيصرية المدعو نيكيتين لجنةً إلى طهران لمكافحة وباء الكوليرا، وقد أسس رئيسها الدكتور كاش بيمارستانًا في المدينة، كان هو المؤسسة الوحيدة التي تحظى بدعم البعثة الأرثوذكسيّة (تقدّن، ص 243-244).

أسس بيمارستان "طهران" الأول بمساعدة الألمان للقوّات المسلّحة في أوّل الأمر، بإشراف الدكتور بولاك¹ والدكتور شلimer² (رايت، ص 126-127؛ الغود، ص 512). هذا البيمارستان الذي سُمي في بعد "البيمارستان الحكومي" أو "البيمارستان الشاهنشاهي" تدهورت أوضاعه إلى حد تسمّيه بـ "مقبرة الأحياء" (سِرِّنا، ص 135). وُضع المستشفى الحكومي بعد مضي اثنين عشرة سنة على تأسيسه في خدمة أبناء الشعب، وبُني للجيش مستشفى آخر (الغود، م. ن، ص. ن)، وقد طلب مظفر الدين شاه بعد وقت وجيز من إيلبرغ³ طبيب السفاراة الألمانية أنْ يعمل على تحدّيث نظامه. تطّور هذا المستشفى الحكومي بفضل إشراف هذا الطبيب، الذي كان هو نفسه يعمل فيه، إلى حين مغادرة ممثليّات الدول الخليفة طهران في محرّم من العام 1334هـ/تشرين الثاني - نوفمبر من العام 1915م. غادر إيلبرغ إيران أيضًا، فعيّن الدكتور لقمان الممالك، طبيب الشاه رئيسًا للبيمارستان (م. ن، ص 546)، لكنَّ أوضاع هذا المستشفى اضطربت، لاضطرام أوار الحرب العالمية الأولى، وإعطاء قسم منه للروس، إلى أنْ وافقت الحكومة الإيرانية في العام 1337هـ/1918م، أنْ ترسل إنجلترا طبيبين إليه، وأنْ تتحمّل المساعدات المالية. وعمل فيه على أساس هذه الاتفاقيّة كلُّ من الدكتور نليان⁴ طبيب السفاراة البريطانيّ، والدكتور سكوت⁵ رئيس القسم الطبي في مديرية البرق الهندوأوروبيّة (رايت، م. ن، ص. ن)، وثلاثة أطباء إيرانيّين هم: لسان شمس المعروفة بلسان الحكماء، والميرزا محمد خان العلائيّ، وموسى خان، بصفتهم أول الأطباء فيه (الغود، ص 546-548). سرعان ما عُرف هذا البيمارستان باسم البيمارستان "الإنجليزي" (رايت، ص 127). في العام 1340هـ/1922م، حين بدأت الأوضاع السياسيّة في إيران تتّجه نحو معاداة

¹ - Polak

² - Schlimmer

³ - Ilberg

⁴ - Neligan

⁵ - Scott

إنجلترا ونفوذها في البلاد، امتنعت الحكومة البريطانية عن تقديم الدعم المالي¹ للمستشفى، وطلبت إلى شركة النفط الإيرانية - الإنجليزية أن تتولى الحافظة عليه، واستمرّ البيمارستان يعمل بإشراف الأطباء الإنجليز والإيرانيين (أغود، ص 554). سُمي هذا البيمارستان في العام 1358هـ/1940م باسم "سينا" (نجمي، ص 421)، وتخلى تدريجياً من سلطة الأطباء الإنجليز، وتولى الإيرانيون إدارته بأنفسهم. لا يزال بيمارستان "سينا" حتى اليوم من أكبر البيمارستانات الحكومية وأرفعها مكانة، يُدار بإشراف كلية الطب التابعة لجامعة طهران. بعد تأسيس البيمارستان الحكومي، أُسست فيسائر المدن الإيرانية بيمارستانات جديدة تدريجياً، بمساعدة الأطباء الأجانب، أو بفضل الإيرانيين. ففي العام 1334هـ/1915م أُسّس في بوشهر فضلاً عن البيمارستان التابع لممثليّة إنجلترا في المدينة (رأيت، م. ن، ص. ن)، بيمارستان جديد بمساعدة مالية من التجار الإنجليزين، وبدأ عمله بإشراف طبيب إنجلزي، وتولّت إدارته هيئة مؤلّفة من إنجليزين وإيرانيين (أغود، ص 548). في السنة نفسها أُسّست البعثة التبشيرية الإنجليزية بيمارستانًا في مشهد بقيادة الدكتور كوك، كما أُسّس أيضاً بيمارستان شاهرضا في تلك المدينة بمساعدة الألمان. في طهران أيضاً قام الدكتور سعيد مالك "لقمان الملك"، الذي كان رئيس مجلس الحافظة على الصحة، ثم رئيس "المديرية العامة للصحة"، بعد تأسيس معهد باستور الإيراني، ببناء البيمارستان الوزيري (إيرانشهر، م. ن، ص. ن)، وعلى أساس الإحصاءات الحكومية في العام 1340هـ/1922م، وصل عدد بيمارستانات طهران إلى ثمانية (شهری باف، مج 1، ص 69). قام كذلك بإصلاح وتطوير البيمارستانات والقرنطينات في الموانئ في جنوب إيران، التي ظلّ الإنجليز يديرونها حتى العام 1346هـ/1928م، حيث تولّت الحكومة الإيرانية إدارتها، كذلك اشتري سفينة باسم ابن سينا خصّصها للأمور الصحية، ولقرنطينات الخليج الفارسي، وتطهير السفن الداخلة في المياه الإيرانية (إيرانشهر، م. ن، ص. ن).

في العام 1343هـ/1925م بنت بعثة "راهبات الحبة"¹ مستوصفاً في أروميه، وفي العام 1353هـ/1935م مستوصفاً آخر في إصفهان، ومركزًا علاجياً في طهران. قامت "راهبات الحبة" في المستشفيات الحكومية في المدن الإيرانية بأنشطة طبية وخيرية (إيرانشهر، مج 2، ص 1452).

¹ - Soeurs de charite

فضلاً عن ذلك، في العام 1351هـ/1933م، بدأ مستشفى باسم المستشفى السوفيatic العمل في طهران، واستمر ناشطاً حتى العام 1403هـ/1938م، حيث توقف العمل فيه، إلى أن أُعيد افتتاحه في العام 1361هـ/1943م بطلب من الحكومة الإيرانية، وفي العام 1366هـ/1947م وضع في عهدة اتحاد منظمات جمعيات الصليب الأحمر السوفيatic، وأُلحق في العام 1403هـ/1983م بجامعة طهران، وأُطلق عليه اسم بيمارستان الميرزا كوتشك خان. بعد أن عاد المستشفى السوفيatic إلى العمل في العام 1361هـ/1943م، افتتح فروعاً له في كلٍ من تبريز وأروميه ومشهد.

منذ زمن بعيد، بادر أهل الخير إلى تأسيس البيمارستانات الحديثة. فقد بني آية الله الحاج السيد رضا الفيروزآبادي، عالم الدين الشهير، صاحب الخدمات، بيمارستانًا كبيراً في العام 1354هـ/1936م في مدينة الرّي، سُميَّ باسمه (م. ن، مج 2، ص 1405)، وكان يُحسب من البيمارستانات الإيرانية ذات الأهمية. في العام 1368هـ/1949م، أَسَسَ تجّار طهران بيمارستانًا باسم "التجّار". في العام 1371هـ/1952م بُني من أموال أبي القاسم مفرح "بيمارستان مفرح" في طهران، وأُوكلت إدارته إلى الحكومة، كما ورد في وقفيته. أَسَسَت في بعض المدن أيضاً بيمارستانات خيرية بدعم من العلماء، أو بإشرافهم، من بينهم الحاج الآغا نور الله الإصفهاني* في إصفهان، وال الحاج الشيخ عبد الكريم الحائرِي* في قم.

في العام 1356هـ/1938م بدأ بناء البيمارستان البهلوi المعروف الذي يضم ألف سرير (بيمارستان الإمام الخميني، الحالى) في طهران، ووُضع قيد الاستخدام في العام 1365هـ/1946م. يُحسب هذا البيمارستان اليوم من البيمارستانات الإيرانية الكبرى. في العام 1357هـ/1939م أَسَسَ بيمارستان خاصًّا بمرضى السل في أحد المباني القديمة في شاه آباد (دار آباد) شميران. هذا البيمارستان طُور في ما بعد، وافتُتح أوّل مبانيه الكبرى في العام 1363هـ/1945م (م. ن، مج 2، ص 1431).

في العام 1359هـ/1941م، أُنشئت وزارة الصحة، وتولّت الإشراف على جميع الماجر الصحيّ [القرنطينات] الحدوديّة. ازدادت فعاليّة الحكومة الإيرانية لا سيّما بعد إنشاء وزارة الصحة، بجهة إنشاء بيمارستانات جديدة في إيران. في العام 1360هـ/1942م أَنشأت هذه الوزارة بيمارستان الفارابي، وبيمارستان النجاة وبيمارستان الشفاء، التي كانت من أكبر المستشفيات الإيرانية. في العام 1364هـ/1946م، بُنيَ في محلّة الإمامية في طهران بيمارستان آخر باسم "مصحّة بوعلي"، مخصوص لمرضى السل، وطُور في العام 1377هـ/1958م (م. ن،

مج 2، ص 1432). في العام 1369هـ/1950م أُسس في جنوب إيران بيمارستان "شير وخورشيد سُرخ ايران" [مستشفى الأسد والشمس الحمراء الإيرانية]. في العام 1370هـ/1951م أُسس في طهران مؤسسة علم السرطان، بمساعدة جامعة طهران، وجمعية الأسد والشمس الحمراء، تحولت بعد ذلك إلى بيمارستان مجهر لمرضى السرطان (م. ن، مج 2، ص 1424). في العام 1376هـ/1957م وما بعدها أُسس كذلك في معظم المدن الإيرانية بيمارستانات عامة ومتخصصة، بجهود وزارة الصحة، أو كليات الطب، بحيث نرى في المدن الإيرانية الكبيرة والصغيرة، بما يتناسب وعدد سكان المدينة وموقعها الجغرافي ووضعها الاقتصادي، بيمارستانات مجهرة بمصحات تابعة لها، أو مستقلة عنها، لكنها كلّها تتبع قانون تأسيس المؤسسات الطبية وإدارتها. في نصف القرن الأخير، بدأ القطاع الخاصّ أيضًا بتمويل إنشاء البيمارستانات، والماكرون الاستشفائية العديدة في المدن الإيرانية.

المصادر والمراجع: ابن أبي أصيبيعة، عيون الأنبياء في طبقات الأطباء، القاهرة 1299هـ/1882-1883م؛ م. ن، بيروت 1957م؛ ابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة، ط. محمد عبد المنعم العريان، بيروت 1987هـ/1987م؛ ابن البلخي، فارس نامه [تاريخ فارس]، ط. غي لسترنج، ورينولد آلن نيكلسون، لندن 1921م، ط. أوفست طهران 1363ش [1984م]؛ ابن البيطار، الجامع لمفردات الأدوية والأغذية، بولاق 1291هـ؛ ابن جلجل، طبقات الأطباء والحكماء، ط. فؤاد السيد، القاهرة 1955م؛ ابن الجوزي، المنظم في تاريخ الملوك والأمم، حيدر آباد الدكن 1357-1359هـ/1938-1940م؛ ابن حوقل، كتاب صورة الأرض، ط. كرامرس، ليدن 1967م؛ ابن النديم، كتاب الفهرست، ط. رضا تحدّد، طهران 1350ش [1971م]؛ عبد الرحيم بن الحسن الأسنوي، طبقات الشافعية، ط. كمال يوسف الحوت، بيروت 1407هـ/1987م؛ إبراهيم بن محمد الإصطخري، كتاب مسائل الممالك، ط. دخويه، ليدن 1967م؛ عباس إقبال الآشتاني، مجموعة مقالات عباس إقبال الآشتاني، قسم 1، جمع وتدوين محمد دبیر سیاقی، طهران 1369ش [1990م]؛ إیرانشهر، طهران: الجمعية الوطنية لليونسكو في إيران، 1342-1343هـ/1963-1964م؛ أحمد بن يحيى البلاذري، فتح البلدان، ط. رضوان محمد رضوان، بیروت 1398هـ/1978م؛ ط. أوفست قم 1404هـ؛ محمد تمدن، أوضاع ایران در جنگ اول، یا تاریخ رضائیه [الأوضاع الإيرانية في الحرب العالمية الأولى، أو تاريخ رضائية]، أرومیه 1350ش [1971م]؛ تیمور الغور کانی، تزوکات تیموری [القوانين التیموریة]، تحریر أبي

طالب الحسيني تربیتی بالفارسیّة، اوکسфорد 1773م، ط. أوفست طهران 1342ش [1963م]؛ إبراهیم تیموری، عصر بی خبری، یا، تاریخ امتیازات در ایران [العصر المجهول، او، تاریخ الامتیازات فی ایران]، طهران 1332ش [1953م]؛ عمرو بن بھر الجاحظ، البخلاء، بیروت 1407هـ/1987م؛ جعفر بن محمد الجعفری، تاریخ یزد، ط. إیرج افشار، طهران 1343ش [1964م]؛ علینقی بن إسماعیل حکیم الممالک، روزنامه سفر خراسان [صحیفة رحلة خراسان]، طهران 1356ش [1977م]؛ احمد بن داود الدینوری، الأخبار الطوال، ط. عبد المنعم عامر، القاهرة 1960م، ط. أوفست قم 1368ش [1989م]؛ رشید الدین فضل الله، سوانح الأفکار الرشیدیة، ط. محمد تقی دانش بجوه، طهران 1358ش [1979م]؛ نفسه، وقفناهه رباع رشیدی [وقفیة الرابع الرشیدی]، ط. مجتبی مینوی وایرج افشار، طهران 1356ش [1977م]؛ احمد بن ابی الحیر زرکوب الشیرازی، شیرازنامه [تاریخ شیراز]، ط. بهمن کریمی، طهران 1310ش [1931م]؛ عبد الوهاب بن علی السُّبکی، طبقات الشافعیة الکبری، ط. محمود محمد الطناحی وعبد الفتاح محمد الحلو، القاهرة 1964-1976م؛ محمد علی بن احمد سدید السلطنة، بندر عباس وخلیج فارس = اعلام الناس في أحوال بندر عباس، ط. احمد اقتداری وعلی ستایش، طهران 1363ش [1984م]؛ کارلا سرنا، سفرنامه مدام کارلا سرنا: آدمها وآینهها در ایران [مدونة رحلة السيدة کارلا سرنا: الناس والعادات والتقالید فی ایران]، ترجمه بالفارسیّة علی أصغر سعیدی، طهران 1362ش [1983م]؛ جعفر شهیری باف، تاریخ اجتماعی تهران در قرن سیزدهم [تاریخ طهران الاجتماعيّ فی القرن الثالث عشر المجريّ]، طهران 1367-1368ش [1988-1989م]؛ إبراهیم بن محمد الصریفینی، تاریخ نیساپور: المنتخب من السیاق، ط. محمد کاظم محمودی، قم 1362ش [1983م]؛ محمد بن محمد عمام الدین الکاتب، تاریخ دولت آل سلجوق، اختصار فتح بن علی البنداری، مصر 1318هـ/1900م؛ احمد عیسی، تاریخ الیمارستانات فی الإسلام، بیروت 1401هـ/1981م؛ أبو القاسم الفردوسی، شاهنامه الفردوسی، نص منقح، مع 7، ط. م. ن. عثمانوف، موسکو 1968م؛ حسن بن الحسن الفسائی، فارسنامه ناصری [تاریخ فارس فی عهد ناصر الدین شاه]، ط. منصور رستغار الفسائی، طهران 1367ش [1988م]؛ علی بن یوسف القسطی، تاریخ الحكماء، وهو مختصر الزوینی المسمی بالمنتخبات الملقطات من کتاب أخبار العلماء بأخبار الحكماء، ط. لیبرت، لایزیغ 1903م؛ محمد جواد الکاظمی، مؤسّسة علم معرفة فارس، شیراز، مقابله، 3 مرداد

1379ش [25-7-2000]؛ آرتور أمانويل كريستن سن، ایران در زمان ساسانیان [ایران في العصر الساسانيّ]، ترجمه بالفارسیّة رشید یاسمی، طهران 1351ش [1972م]؛ حسين کریمان، ری باستان [الرّیّ القدیمة]، مج 2، طهران 1349ش [1970م]؛ محمود نجم آبادی، تاریخ طب در ایران پس از اسلام: از ظهور اسلام تا دوران مغول [تاریخ الطبّ] في ایران بعد الإسلام: منذ ظهور الإسلام حتى العصر المغوليّ]، طهران 1353ش [1974م]؛ ناصر نجمی، طهران عهد ناصری [طهران في عهد ناصر الدين شاه]، طهران 1364ش [1985م]؛ محمود ناظم نسیمی، "ابداع الرسول العربيّ في فنّ الصحةّ"، في أبحاث الندوة العالمية الأولى لتاريخ العلوم عند العرب، مج 1، حلب 1977م؛ سعید نفیسی، "تاریخ الیمارستانات الإیرانیّة"، شیر و خورشید سرخ ایران [جمعیّة الأسد والشمس الحمراء الإیرانیّة]، السنة 3، العددان 9-10 (1330-1329ش [1950-1951م])؛

أجنبي...

/صادق سجادی/